الأبعاد الناصرية
وإطار المشروع الحضاري العربي

حوار مع الأستا
فريد عبد الكري

مركز « النهضة » للدراسات والتوثيق
Centre «La Renaissance » d'etudes et de Documentation

مقدمة

في إطار سعي الأمة العربية ونضالها من أجل تحررها وبناء مجتمعها التقدمي الديمقراطي الموحد واعتماداً على منهج التجربة والخطأ والمعاناة النضالية اليومية لأمة بأكملها ، تبلورت الناصرية كنظرية عمل متكاملة لهذه الأمة وشكلت بأبعادها الأساسية (القومية ، التحررية ، الاجتماعية والدينية) ملامح المشروع الحضاري العربي المعاصر ..

من هنا يأتي اهتمام مركز « النهضة » للدراسات والتوثيق بهذا اللقاء الذي جرى بين الأستاذ فريد عبدالكريم المحامي والسياسي الناصري المعروف في مصر والوطن العربي مع شباب رابطة الطلبة العرب الوحدويين الناصريين - لأن هذا اللقاء يشكل مساهمة على طريق توسيع دائرة الحوار بين الأجيال ليبقى مشعل الثورة مرفوعاً ويبقى الوضوح الفكري والنضالي رائد بناة المستقبل - رغم كل محاولات التعتيم التي يحاول زرعها عشاق الظلام .

وعندما تأتي شهادة التاريخ على لسان مجاهد ومناضل كبير كالأستاذ فريد عبدالكريم الذي يشهد له الأعداء قبل الأصدقاء بطهارته الثورية وصلابته وعناده النضالي الذي لا يلين أمام الصعاب وأهوال السجون .

تسترجع المبادىء الثورية بريقها ومصداقيتها وتستعيد الأمة شبابها وثقتها بنفسها لتستلهم من الماضي البعيد والقريب الطريق الأسلم لبناء غدها المشرق .

الجلسة الأولى

تمهيد :

إذا كنت أتشرف بأنني سأعرض بعض جوانب الناصرية فإنني أريد من خلال هذا العرض أن ألتقي بكم فكرياً لكي أتزود من حماسكم ومن روحكم ومن إصراركم . وفي الحقيقة أن الضمير العربي رائد في هذه الأيام ، كما أن ضميركم حاضر أشد الحضور ، كما أكدت في مناسبة سابقة عندما التقيت بشباب مثلكم . ومن خلال هذا الحضور أود أن أشحن نفسي بشحنة حماس وشحنة فكر وشحنة إصرار لكي أعود مرة أخرى إلى مواقع النضال لأنقل إلى إخوتي وزملائي وأصدقائي ورفاقي كل ما ألمسه فيكم من إصرار وحماس وإيمان ومن وضوح فكر .

إذن هدفي الأساسي ، أن أعود وأنا مجدد العاطفة ، مجدد الفكر ، مشتعلاً بالحماس الذي سوف آخذه منكم .. وعليه فإني أود أن يكون حديثي إليكم متنامياً متكاملاً إذ أن قصدي الأساسي هو أن أعرض لكم الأوضاع السياسية في مصر ، لكن حتى أعرض هذه الأوضاع لابد أن أتحدث عن الأبعاد السياسية للثورة العربية كنظرية .. الأبعاد الحقيقية للثورة الناصرية ، ولابدّ أيضاً أن أتعرض لمعالم الهجمة الشرسة عليها .. وما هي القضايا التي توجه إليها ؟ محاولين معاً في حوارٍ هادىء ، موضوعي وبسيط أن نناقش هذه القضايا المثارة من أعداء الناصرية .

بعد ذلك لابدّ أن نتعرض للأوضاع الحالية في الوطن العربي .. أي لما أدت إليه الهجمة الرجعية الشرسة في الوطن العربي ثم نتحدث عن الأسباب التي أدت إلى هذه الأوضاع المتردية حيث نكاد نغرق معاً جميعاً ، نحن والأمة العربية والبندقية وعبدالناصر ، في مستنقع استطاعت الرجعية فيه أن تحاصر الثورة الناصرية ، ثم ننتقل بعدئذٍ إلى بيان الأوضاع السياسية في مصر .. لماذا ؟

لأن كل هذه النقاط ، أبعاد الناصرية والهجمة عليها ، الأوضاع المتردية في الوطن العربي والأسباب التي أدت إليها ، كلها مرتبطة ارتباطاً أساسياً وعضوياً بالتيارات السياسية وبما يجري على الساحة المصرية من عمل سياسي ..

وبالضرورة ونحن نتعرض لأبعاد الناصرية سنتعرض لبعض الفروقات التي تميزنا عن الأيديولوجيات الأخرى حتى نكون على بينة ووعي بما يميزنا عن الماركسية والرأسمالية وأيضا عن بعض التيارات الدينية ومقولاتها .

الأبعاد الحقيقية للناصرية :

الأبعاد الحقيقية للناصرية تكمن في أربعة :

١ ـ البعد القومي .

٢ ـ البعد الاجتماعي .

٣ ـ البعد الديني .

٤ ـ البعد التحرري .

وعندما أعرض هذه الأبعاد ولن أعرضها بالترتيب وإنما سأعرضها كأبعاد رئيسة وأساسية لا تناقض بينها على الاطلاق . كما لن أبحث مدلولاتها العلمية ولا أسبابها القانونية ولن أرجع فيها إلى أصولها العلمية وإنما اتعرض لملامحها الرئيسة فقط بقصد أن أصل إلى القضايا التي تواجه الناصرية وأن أصل أيضاً إلى التيارات السياسية في مصر .

١ ـ البعد القومي :

إن البعد القومي يعطي الناصرية كنظرية للثورة العربية أهم ملامحها ، لأنها لا تعترف بالاقليمية على الاطلاق ، لا تعترف بالتجزئة ولا تعترف بالتشتت ، ثم أن القضايا الناصرية ومعارك عبدالناصر منذ البداية كانت تتميز بسمة أساسية هي السمة القومية وليس السمة الاقليمية أو الحزبية أو سمة التجزئة والتشتت .. فمثلاً معركة قناة السويس كان بعدها القومي واضحاً من عدة ملامح .

إن تأميم قناة السويس لم يكن مقصوداً بذاته وإنما كان مقصوداً به أن ثروة الأمة العربية للأمة العربية وأنه لا ينبغي إطلاقاً أن نسمح لأحد بنهب موارد هذه الأمة ولا ينبغي على الاطلاق ان نسمح للاستعمار أن يمتص دماءها وشرايين الحياة فيها ولا ينبغي إطلاقاً أن نسمح للعدو الخارجي أن يمتص خيرات هذه الأمة في جيلها الحالي وفي أجيالها القادمة .

كانت إشارة عبدالناصر في تأميم قناة السويس إشارة إلى ضرورة تأميم العالم العربي للبترول .. إشارة إلى أن كل الموارد الاستراتيجية للأمة العربية وكل خيراتها لابدّ أن تعود للأمة العربية وحدها .. كانت إشارة البدء في تأميم قناة السويس إشارة هامة لكي يتنبه العرب ، بل يتنبه العالم كله بأنه لا يصح اطلاقاً أن نترك الامبريالية ولا الاستعمار ، بأشكاله القديمة والحديثة ، أن ينهب موارد الشعوب . ومن أجل ذلك كان قول أحمد سيكوتوري قولاً فريداً من نوعه ولكنه ذا مصداقية بالغة الخطورة إذ يقول : « ما كنا لنجرؤ أن نطالب بالاستقلال عن فرنسا لولا أن شخصاً إسمه عبدالناصر قد أمم قناة السويس » .

وبالضرورة لم يكن ليجرؤ أحد أن يشير إلى أن بترول العرب لابدّ أن يكون للعرب وأنه ينبغي أن نبدأ في تأميمه لصالح الأمة العربية .

ثم من ناحية أخرى إن توجه عبدالناصر في تأميم قناة السويس كان توجهاً نحو الجماهير العربية كلها ، ولذلك كان طبيعياً في ظل أقسى الأنظمة وأحقرها ، نظام نوري السعيد ، أن تخرج الجماهير في العراق لكي تحاصر قاعدة الحبانية (البريطانية) ... وفي سوريا لتقطع خطوط التابلين استجابة لتوجهه .. وهكذا فإن التوجه الأساسي حتى في معركة قناة السويس التي تبدو في ظاهرها عملاً مصرياً حميماً وخالصاً كان قومياً بحتاً ومن هنا لم يلجأ عبدالناصر إن نظام من الأنظمة عام ١٩٥٦ ولم يلجأ إلى حاكم من الحكام وإنما كان توجهه الأساسي إن الجماهير العربية لمعرفته الواعية والمحددة أن جماهير الأمة العربية هي أداة التغيير وأداة النضال .

وعليه نستطيع أن نقرر بيقين وأيضا بقناعة كاملة أنه حتى معركة ١٩٥٦ كانت معركة قومية في الدرجة الأولى ، ومن هنا نفهم قول وزير الدفاع الفرنسي ، وقوله صحيح تماماً ، عندما سئل لماذا هاجمتم مع اسرائيل وانكلترا ومصر ... قال : « لأننا كنا نريد أن نخضع الجزائر عن طريق إخضاع القاهرة » .

وإنه إلى أن يتحقق ذلك كله ، ليس من حق أحد أن يعيش في ترف والا كانت حياته سحقاً وظلماً .
هذه الحقيقة الدينية التي تكشف عنها نصوص القرآن الكريم وتكشف عنها الأحاديث ويكشف عنها السلف الصالح ، أغمضها التيار الديني عن قصد أو عن غير قصد ؟ والله أعلم !.
نحن نؤمن أن الاسلام جاء كعقيدة لا تتعرض للتفاصيل الجزئية وإنما للقضايا الكلية نستهدي بها .
من ضمن القضايا الكلية التي نستهدي بها انه ليس من حق أحد ، شيخ أو أمير أو ملك أو سلطان ، وليس من حقه أن يعيش مترفاً والناس لم تصل إلى حد الكفاف دون الكفاية بل وصلت إلى حد الموت .
الحقيقة الدينية الأخرى التي نؤمن بها ، اضافة للجانب الفلسفي الذي حدده الدين كحقائق مطلقة ، إنه لا يصح لأحد في دار الاسلام أن يمتلك شيئاًدون حاجة ضرورية .. يقول الله تعالى في كتابه « خذ العف وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » ومعنى خذ العف أي خذ ما يسد حاجة الانسان الضرورية وقد اختلفوا في المدى الزماني للحاجة الضرورية : هل هو يوم أو ثلاثة أو هو حول كامل ؟ انما حتى وفق أضيق التفسيرات توسعاً لا يصح لأحد أن يمسك لديه من مال خاص ما يزيد عن حاجته الضرورية . حتى الحاجة الضرورية يستطيع الحاكم أن يأخذ منها ليرد إلى انسان لم يصل إلى حد الكفاف أو إلى حد الكفاية .

في النهاية إننا نؤمن بالدين الاسلامي ككل بل بالأديان عموماً لأننا لا نفرق ، وما الاسلام إلا لبنة أخيرة في الدين كله ، كما نؤمن إيماناً شديداً أن الدين الاسلامي لا يصادم ما ينبغي أن نتخذه من أنظمة تفصيلية في حياتنا ومصائرنا فنحن أعرف بأمور دنيانا .
كان الرسول (صلعم) قد أمر الناس مرة أن لا يؤبّروا النخل ففعلوا ولم يثمر النخل في السنة التالية ، فسألوه : لقد أمرتنا يا رسول الله الا نؤبر النخل وها هو النخل لم يثمر في هذا العام .. فرد الرسول بأن أبّروه أو لا تؤبّروه ، أنتم أعلم بشؤون دنياكم .
حتى في معركة بدر عندما أشار عليهم الرسول بالنزول في مكان معين فسأله أحدهم : هل هذا منزل أنزلك إياه الله أم هي الحرب والرأي والمكيدة ؟ أجاب : بل هي الحرب والرأي والمكيدة ، فقال له : إذاً فهذا ليس بمنزل . واصطف المسلمون أمام عين الماء حتى يحاربوا ووراءهم الماء يمنعونه عن المشركين ، وانتصر المسلمون في ذلك .
كل ذلك يؤكد لنا حقيقة اساسية انه في العقائد والعبادات نحن نؤمن بالاسلام ونسلم به ونتبعه ونطيعه ، أما في قضايانا الحياتية فقد جاءنا بعموميات كلية ولم يأتِ بأنظمة تفصيلية تاركاً للعقل البشري القدرة أن يجتهد ليحقق لنفسه سعادته وطمأنينة نفسه وسكينة حياته .
من هنا أكملت الناصرية هذا الجانب ، لأنه مطلوب فرضاً وشرعاً أن تضع النظام الذي يستطيع في مكان معين وفي فترة زمانية محددة وفي مواجهة مشكلات معينة أهمها القهر والتسلط والتخلف والظلم الاجتماعي ، أن نضع من الأنظمة ومن النظريات ومن المناهج والأسس ما نستطيع به أن نعيش كرماء أعزاء ، أحراراً لأن الله خلق الناس أعزة أحراراً وخلق ابن آدم خليفة له في الأرض .. والخليفة ينبغي له أن يتمتع وأن يسعد وأن يكون كريماً عزيزاً (إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين) .
من أجل ذلك نستطيع أن نقرر في هذا البعد : البعد الديني ، أننا نأخذ الدين الاسلامي ككل في شموله ، وهو في العقائد والعبادات قد استوفى كل غاياته ، لم يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدّها وفصّلها . أما فيما يتعلق بحياتنا والمشكلات التي تواجهنا فقد ترك ذلك للعقل البشري وهو الحيز الذي حاولت نظرية الثورة

العربية أي الناصرية أن تنظمه وأن تفصله وأن تضع أسسه ومناهجه . المهم أننا نسير في المصالح المرسلة وليس في المصالح الملغاة .

ثم أننا نعتقد اعتقاداً جازماً ويقينياً أنه لا تعارض ولا تصادم على الاطلاق بين البعد الديني وبين الأبعاد الأخرى : القومي والاجتماعي والتحرري ..

الدين أيها الأخوة ! حديث طويل لأنه بالغ الأهمية .. لأن من ضمن الهجمة التي تواجه الناصرية ، ما تقول به بعض التيارات الدينية بأننا نخالف الدين الاسلامي ، وتحاول أن تتهمنا ، ونحن غير متهمين بل هذه التهمة ساقطة بالنسبة لنا .

لكن ينبغي أن نتسلح تسلحاً حقيقياً بالرد الحاسم على هذه الدعوة لو أثيرت لأنها مسألة أساسية بالنسبة لنا وللمجتمع العربي في كل الساحات العربية .

لأن الانسان العربي قد ولد ووجد في أرض كان مهبط الأديان السماوية جميعاً ومحط رسالاتها ، وان تكوينه النفسي مصريا كان أم سوريا أم غير ذلك ، بل إن جانباً كبيراً من تركيباته النفسية هو جانب ديني .. وليس خفياً أن المصريين القدماء اخترعوا الدين قبل نزول الأديان السماوية .. من أجل ذلك كله لا يصح اطلاقاً أن نتخطى الواقع بل أن نفهمه وأن نتعامل معه . كما ينبغي علينا جميعاً ، كناصريين وخاصة أنتم الشباب لكم المستقبل ونصف الحاضر ، أن نتسلح بالرد العلمي الصحيح على أن الدين لا يصادم بعدنا الاجتماعي ولا بعدنا القومي ولا بعدنا التحرري .

هذا هو إذن بعدنا الديني كما قلت ، بعد شامل يعرف جوهر الدين ولا يعرف قشوره .. يعرف الدين بإبعاده كلها ولا يعرف جزءاً منه فقط وبالتالي لا نستطيع أن نفصل بين العبادات وبين حياة الانسان ، حياته التي ينبغي أن تتوفر كل مقوماتها له لكي يعبد الله خالصاً مخلصاً . وكما يقول انجلس في هذا الموضوع ، وقوله صحيح ، بأن الانسان لابد أن يأكل ويشرب ويلبس وينام تحت سقف وفي مأوى لكي يفكر ويتفلسف ويتدين . من أجل ذلك نحن نقول للمتعصبين الذين اغلقوا قلوبهم وعقولهم لابَد أن نأكل وأن نشرب وأن نتحرر وأن نعيش أعزاء كرماء وأن نسكن تحت سقف ومأوى وليس في أعماق القبور كما يجري في مصر لكي نتفلسف ولكي نتفكر ولكي نتدين ولكي نعبد الله خالصاً بدون حاجة وبدون ذل السؤال .

٣ ـ البعد الاجتماعي :

البعد الاجتماعي في الناصرية هو مسألة الاشتراكية التي سأتناولها باختصار شديد وفق المنهج الناصري واضعاً الملامح الرئيسية فقط لضيق المجال والوقت . تقوم الاشتراكية وفق التصور الناصري على أربعة أسس أساسية أو أربعة ركائز رئيسية :

الأولى منها : إن ملكية وسائل الانتاج الأساسية لابدّ أن تكون للشعب جماعياً وإجتماعياً وأن تكون وسيلة ذلك التأميم .

هنا نفترق عن الماركسية في الدرجة الأولى ، نحن نقول ملكية وسائل الانتاج الأساسية ومعنى ذلك أن ما يملكه المجتمع أساساً لحياته ومصيره لابدّ أن يكون مملوكاً ملكية جماعية وإجتماعية لجماهير الأمة العربية . أما الماركسية هنا تقول أن ملكية وسائل الانتاج كلها دون استثناء .

نحن نقول بالتأميم لكن من الممكن أن الماركسية تقول بالأخذ ، بالمصادرة وبالاستيلاء .. إذن

الاختلاف في الدرجة في ملكية الوسائل وفي الوسيلة ..

وهنا نرد على كثير من التقوّلات والتخرصات الكثيرة : لماذا أمم عبد الناصر ورشة معامل صغيرة ؟ كما يقول كمال الدين حسين .. لماذا جاءت قوانين ١٩٦٣ بعد قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية ؟..

نحن لا نفرق بين الكبير والصغير وإنما معيارنا الأساسي في التأميم هو : هل هي وسيلة أساسية أم تكميلية ؟ إن كانت وسيلة أساسية فمهما صغر حجمها يجب أن تؤمم لأنه لا يصح لأحد أن ينفرد بملكية وسيلة أساسية من وسائل الانتاج للشعب ، أما إذا كانت غير أساسية ومهما كبرت فمن الممكن أن يؤجل تأميم ملكيتها أو انتقال ملكيتها من اليد الخاصة إلى اليد العامة . والشراء ليس وسيلة ، الاستجداء ليس وسيلة ، المصادرة ليس وسيلة ، التبرع ليس وسيلة وإنما التأميم هو الوسيلة الوحيدة للملكية العامة لوسائل الانتاج الرئيسية للمجتمع ، هذه هي الركيزة الأولى في اشتراكيتنا .. أي أن تكون وسائل الانتاج الرئيسية مملوكة للمجتمع العربي كله ملكية جماعية اجتماعية لأنه ربما بعض الناس يقول هناك الشركات المساهمة ذات الأسهم القليلة كملكية جماعية .. لا ! الملكية العامة للشعب كله وليس لمجموعة من الناس حتى ولو كانوا عمال .. والشعب هنا هو الشعب العربي كله .. فما يملكه اليمني في نفط العراق أو في نفط الجزيرة العربية أو في غاز الجزائر شأن ما يملكه كل انسان عربي في أي مكان .. مايملكه المجتمع العربي فلاح أو غير فلاح أو مثقف ثوري .. الخ في البور المهملة المتروكة في السودان هو ملكية أساسية للشعب العربي كله من محيطه إلى خليجه .

عبد الناصر في منهجه درس واقع الانسان العربي ودرس مشكلاته الأساسية ودرس الحلول الجذرية لها ودرس أداة التغيير فيه وأسلوب التغيير ولكنه استفاد كذلك من كل التراث الانساني بكل نواحيه وأخذ منه بغير عقد وبغير سخط أو تعصب وأعطاه أيضاً ..

عملية الأخذ والعطاء بين الحضارات الانسانية مسألة طبيعية وضرورية ، الحضارة المصرية أعطت الحضارة اليونانية وهذه أخذت عنها الحضارة الرومانية ، وعصر التنوير مبني على ذلك كله ، ونحن الآن نأخذ من الحضارة الغربية الأشياء الكثيرة .. عملية جدلية دائمة ومتبادلة باستمرار . وهذا هو الاطار الانساني كله ، لا ينبغي لأحد أن يقف عقله أويقفل فكره اطلاقاً على أن يأخذ من كل التجارب الانسانية ما يفيد المجتمع لكن بشرط ألا يكون نقلا وإنما ان يكون انتقالا وأن يكون بشكل متوافق ومتناسب مع المجتمع ومشكلاته الرئيسة التي يعانيها وظروفه وامكانياته .

وبكلمة أخرى لا ننقل نظرية لأنه قد ثبت عالميتها أو علميتها وإنما ينبغي أن نأخذ منها بقدر ما يفيد مجتمعنا ثم نطورها ونصبغها بالصبغة العربية . لقد كان عبد الناصر يصرّ على هذا ، ونحن أيضاً ننهج نفس السبيل ونفس المنهج .. لقد وضع عبد الناصر المنهج والأسس وملامح نظرية متنامية ، متكاملة ، متسقة ، وقابلة للتطور وللجدل رغم أنه لم يدّع أنه منظر أو فيلسوف كما لم يدّع أنه وضع الحل النهائي وهذه نقطة أساسية هامة وجوهرية ، من هنا فإنه ألقى على الأجيال القادمة أو الشباب القادم مسؤولية التطوير الدائم والتنامي الكامل الدائم والمستمر .

الركيزة الثانية :

إن العمل هو مصدر الرزق الأساسي وهو معيار الاحترام والتقييم الوحيد في المجتمع ، هذا من

ناحية ، من ناحية أخرى إن العمل قيمة تضع الانسان في مكانه في المجتمع متقدماً أو متخلفاً ، يدوياً كان أم ذهنياً ، عملاً تقنياً بالغ الدقة في تقنيته أو تخصصه أم غير مرتبط بتقنية أو بتخصص أو بمهارة .. المهم أن يكون العمل ضرورياً في المجتمع فالمجتمع يحتاج للعمل الذهني وللعمل اليدوي ، يحتاج للعمل المتخصص وللعمل البسيط غير المركب . وكل ذلك عمل محترم بغض النظر عن نوعيته طالما أنه ضروري للمجتمع وبالتالي كل من أدى عمله بإخلاص شديد وبأمانة شديدة هو مقدّم في المجتمع .

إذن العمل هو مصدر الرزق الأساسي ومعيار التقييم الوحيد وما عداه فهو تكميلي ، ومن هنا فإن الانسان يحتاج بل قد يموت إذا لم يؤد عمله .

الركيزة الثالثة :

تقول أنه إذا كانت الوسائل الرئيسية للانتاج مملوكة للمجتمع العربي كله ، وكان العمل هو القيمة الأساسية فيه ، إذاً لابد للمجتمع أن يدير شؤون ملكيته إدارة مركزية بناءً على تخطيط مركزي معدّ سلفاً ومحدد فيه كل تصرف ، كل خطوة وكل اسهام . أي لا يترك الأمر اطلاقاً لتنافس أو لمجهود عفوي أو لمبادرة فردية قد لا تؤدي للمجتمع أي خير أو أية فائدة .

إذاً الركيزة الثالثة خطة مركزية معدة سلفا بإتقان شديد وباحسان ، وهذا مستمد من بعدنا الديني ، لأن الاسلام يقوم على عدة مباديء أساسية منها التوحيد والعدل والاحسان ، الاحسان يعني أن يحسن كل انسان ما يصنعه .. « ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ..

الركيزة الرابعة :

إن كل شيء يبدأ بالانسان وينتهي إليه ، يبدأ من الانسان حركةً ونشاطاً ونصراً إلى المجتمع ويعود مرة أخرى خيراً للانسان وسعادةً وسكينةً واطمئناناً وإشباعاً لحاجاته . لكن اذا تصادمت مصلحة الفرد كفرد مع مصلحة المجتمع ، فإن مصلحة المجتمع هي الأولى وهي الأكثر أهمية .

والركائز الأربعة تلك التي تستند إليها الاشتراكية وفق المنهج الناصري ترتكز بدورها الى بعد آخر وهو أن ملكية الدولة يجب أن تدار إدارةً ديمقراطية . وهذه نقطة بالغة الأهمية في الناصرية ينبغي أن تعطوها حقها في الاهتمام والدراسة .

إن ملكية المجتمع لوسائل الانتاج لابدّ أن ترتبط ارتباطاً أساسياً بديمقراطية الادارة وقد أدت الناصرية بهذا اسهام على مستوى عال من الأهمية مما يميزها عن كل الفلسفات الأخرى . ففي الدول الشيوعية ما تزال ملكية وسائل الانتاج تدار إدارة فردية والمدير يتولى مسؤوليته بالتعيين أما في الناصرية فالادارة الديمقراطية كانت أهم ملامح التطبيق الناصري للاشتراكية ورغم أني سأتعرض لهذا الملمح بالتفصيل في وقت لاحق إلا أنه لابأس أن أعطي بعض التفاصيل الآن .

لقد نصبت النظرية الناصرية عبر القوانين التي أصدرها عبد الناصر على أن يمثل العاملون في إدارة الانتاج بعامل وموظف .. في البداية أحكي لكم قصة طريفة بهذا الخصوص ..

في بداية التجربة عام ١٩٦٢ كنت مستشاراً قانونياً للحكومة ، وبحكم هذه الصفة حضرت أول اجتماع لمجلس ادارة احدى الشركات فيه عامل وموظف يمثلان العاملين بالانتخاب الحر المباشر الصحيح .. واختلف رئيس مجلس الادارة ، وكان أحد عمالقة التجارة والصناعة ، والمدير العام ، كان أحد البولنديين لأنها كانت شركة بولندية ، اختلفوا في موضوع معين ، فقال رئيس مجلس الادارة لنعرض الأمر على التصويت .. وأنا ما زلت أتذكر العامل واسمه وشكله وما يزال صديق لي حتى الآن كما أتذكر الموظف واسمه وشكله .. فبدأ رئيس مجلس الادارة يسأل ممثل العمال : رأيك إيه ؟ فبادر قائلاً : « إحنا خدامينك يا سعادة البيه » .. ذلك كان في بداية التجربة فشرحنا له أن « رأسه برأس رئيس مجلس الادارة ورأيه يساوي رأي رئيس مجلس الادارة تماماً » وعليه أن يبدي رأيه بكل شجاعة وموضوعية .. ولم يمضِ إلا ثلاث سنوات على التجربة وتغير القانون وأصبح بدلاً عن موظف وعامل ، أربعة عمال بانتخاب حر مباشر من جماهير العمال .. وفي نفس الشركة كان العمال الأربعة يرهبوا رئيس مجلس الادارة ولم يكن يمر قراراً واحداً إلا بموافقتهم كممثلين لجماهير العاملين في المصنع الذي كان يضم عشرة آلاف عامل ... ولقد وصلوا إلى أن يناقشوا كل قرار مناقشة واعية وموضوعية .. عند المكافأة كانوا يحاسبون .. كم سيأخذ المديرون وكم سيأخذ العمال والنسبة كم تكون ؟... كل تخطيط كانوا يشاركون به ...

إذن بدأت بعامل واحد وموظف واحد ثم تدرجت إلى أربعة عمال في مجلس الادارة الذي يتكون من ثمانية أعضاء : أربعة منتخبين وأربعة معينين وهذا ضرورة من ضرورات تقنية وفنية حيث أن مدير الفنيين يجب أن يكون موجوداً وكذلك المدير المالي ومدير المصانع والمدير التجاري وهؤلاء يعينوا بحكم وظيفتهم وليس بحكم أسمائهم . بينما العمال الأربعة فكانوا ينتخبون كل سنتين وذلك كي يحدث التجدد ويحدث إعداد الكوادر العمالية .

ولم يكتف عبدالناصر وإنما ضم إلى هؤلاء عشرة منتخبين عن الاتحاد الاشتراكي داخل المصنع بالانتخاب الحر المباشر وبالتالي أصبحوا أربعة عشر منتخبين ضد أربعة معينين . ولم يكتف أيضاً بهذا بل ضم إليهم ثمانية عشر آخرين كممثلين للنقابة العامة في المصنع فأصبح إذن عدد أعضاء مجلس الادارة أكثر من ثلاثين ليس بينهم سوى أربعة فقط معينين بحكم وظائفهم . وهذه هي ديمقراطية الادارة الحقيقية التي تفرق في اقتصاد الدولة بين الفاشية وبين الديمقراطية الاشتراكية الحقيقية ، حيث أن شرط الاشتراكية أن تكون إدارة الدولة إدارة ديمقراطية .

هذه التجربة للأسف الشديد مع خصوصيتها الشديدة لم يلتفت إليها أي باحث ولا أي مفكر ولا أي دارس في الناصرية .. وأهميتها تكمن في أنه في وحدات الانتاج التي يملكها الشعب وهي تمثل تسعين في المئة أي تمثل كل الوسائل الاساسية للانتاج : في البنوك وشركات التأمين والصناعات الثقيلة والصناعات الخفيفة والصناعات الاستهلاكية ... الخ كلها كانت تدار إدارة ديمقراطية حقيقية ... كانت الجمعية العمومية ليست من أصحاب الأسهم بل كانت مجموع العاملين داخل المصنع ، الذين يوافقون على الخطة ويعرفون احتياجاتها ونفقاتها ويعرفون ما هو المقدر في الانتاج فيها ، وهم الذين ينفذوها ويراقبوا تنفيذها ويحاسبوا المنفذين ..

إذن العملية بلغت أعلى درجة من الديمقراطية في وحدات الخدمات ووحدات الإنتاج .. على كل حال سوف أتعرض لذلك عندما سأرد على دعوات غياب الديمقراطية في التجربة الناصرية حيث سأعرض أمامكم كيف كانت تدار في عهد عبدالناصر القرية والمدينة والمصنع والمستشفى معاً .. لقد

كان عبد الناصر ديمقراطياً بكل معنى الكلمة .. ديمقراطية صحيحة وحقيقية ، نابعة من القاعدة ، لأن الحكم ليس هو الشريحة الفوقية وإنما كل من يملك أن يصدر القرار أو أن يتخذ موقفاً في أي شأن من شؤون الأمة وأهمها الانتاج والخدمات والادارة والحكم . وما الطبقات العليا أو الشريحة العليا إلا إفرازاً لما يجري في القاعدة الأساسية في المجتمع .

٤ ـ البعد التحرري :

بدون أن نتفلسف ، إن الناصرية تؤمن أساساً أن حرية الوطن العربي واحدة لا تتجزأ ، وأنه لا يمكن لأي جزء أن يدّعي أنه متحرر من وطأة المحتل إلا إذا كانت كل الأراضي العربية محررة ، لا تفرقة ولا تمييز بين أرض وأرض ولا بين شبر وشبر .

والناصرية تؤمن أن كل موطيء قدم في الساحة العربية من المحيط إلى الخليج هو بنفس القداسة التي يتمتع بها فناء كل بيت عربي . فالأرض في فلسطين وفي العراق وفي الجزائر والمغرب واليمن والجنوب العربي و ... هي بنفس الأهمية التي لكل ذرة تراب في فناء بيت في مصر أو في أي مكان آخر . ومن هنا لم يكن يفرق عبد الناصر في نظرته التحررية الكاملة بين معارك الأمة العربية كلها ، وليس غريباً أنه خاض المعارك كلها على الأرض العربية .. خاض معركة ١٩٦٧ من أجل سوريا وخاض معركة الجنوب العربي من أجل الوطن العربي كله ، وساند ثورة العراق التي أسقطت نظام نوري السعيد وعبدالله ، وحشد جيشه كله في الاقليمين الشمالي والجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة لكي تواجه القوات الاميركية التي نزلت في لبنان والأردن ... الخ .

إن الناصرية تعتبر أن تحرير الأرض العربية كلها وحدة لا تتجزأ ولا تختلف ، وأنا أقول ذلك كله من خلال الوقائع والحقائق وليس من خلال النظريات فقط . لأن مصداقية أي شعار إنما تكمن في المواقف المتتالية المتكررة المنسجمة مع الخط العام بحيث لا تختلف واقعه عن الأخرى .

في سنة ١٩٦٨ عندما عرض الاميركيون والاسرائيليون أن ينسحبوا من كل الأرض المصرية حتى حدود مصر العربية وقطاع غزة ، قام عبد الناصر من منطلق وحدة الأرض العربية وحرية الأرض العربية التي لا تتجزأ ليقرر علناً وعلى رؤوس الأشهاد ومخاطباً جماهير أمته والعالم كله أن القدس قبل سيناء والجولان قبل سيناء والضفة والقطاع قبل سيناء ، ورفض رفضاً جازماً ونهائياً هذا الاتفاق .

بل ان عبد الناصر كان يلاحق الاستعمار في كل المجال الحيوي لمصر ، فعندما وقعت حادثة الانفصال في بيافرا في نيجيريا ، وكان ذلك في يوليو وأغسطس سنة ١٩٦٧ وكان جوكومو عميل الاستعمار الاميركي يضرب لاغوس كل يوم بطائراته ، ولم يكن لدى نيجيريا أي نظام دفاع جوي ، اتصل به يعقوب غوان لكي يتوسط لدى الجزائر لترسل له طيارين إذ أن الاتحاد السوفياتي قد أمده بطائرات ميغ ١٧ ولم يمده بطياريها . فكان أن أمر عبد الناصر بذهاب طيارين مصريين ونحن في ظل النكسة ليواجهوا الانفصال في نيجيريا أي ليواجهوا الاستعمار في افريقيا التي تشكل المجال الحيوي للأمة العربية .

في حرب سنة ١٩٥٦ وفي ظل الهجمات الاستعمارية الشرسة لم تتوقف قاعدة مرسي مطروح عن تمويل المجاهدين في الجزائر بل كانت على أقصى درجة من النشاط في تدعيم ثورة الجزائر بالسلاح والتدريب والمقاتلين وغير ذلك .

ليس هذا فحسب بل لقد أدخل عبدالناصر هذه الحقيقة كيقين في ضمير الشعب العربي في مصر مضمونه أن حرية الوطن العربي هي قضية مصرية في المقام الأول والنضال الفلسطيني هو مصري في المقام الأول وكذلك النضال اليمني ...

وقد تحمل المواطن المصري ذلك كمسؤولية وكقدر وكمصير فلم يترك معركة واحدة من معارك التحرر العربية الا وشارك فيها بالدم وليس ببيانات التأييد ولا المناصرة الكلامية ولا ... الخ وإنما كحقيقة ارقى من القانون وأرقى من الظاهرة وأرقى من النظرية .. كان الدم المصري يراق على كل الأرض العربية .

ان وحدة تراب الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ، وحدة لا تتجزأ وأن حرية أي أرض عربية لا تكتمل الا بحرية الأرض العربية كلها من محيطها إلى خليجها بدون استثناء وبغير تفرقة .

من ناحية أخرى ان وحدة المواطن العربي هي أيضا وحدة أساسية .. وحرية المواطن العربي في أي أرض عربية هي حرية المواطن المصري .. تلك هي النظرية الثورية للأمة العربية .. حرية الأرض وحرية المواطن العربي هي حقيقة اساسية لا تتجزأ ولا تنفصل وما يجري في أقصى الجنوب أو أقصى الشمال أو الشرق أو الغرب كأنه يجري في قلب القاهرة وفي قلب ميادينها .. تلك هي سمة أساسية من سمات الناصرية .. حرية الأرض وحرية الانسان .

وأدرك عبدالناصر من خلال منهجه أن أعداء حرية الأرض وحرية المواطن يتمثلون في ثالوث شرير : الاستعمار بأشكاله القديمة والجديدة ، الصهيونية العالمية المتحالفة مع الاستعمار القديم والجديد والرجعية العربية .

هذا الثالوث الشرير هو عدو الأبعاد الثلاثة التي سبق ذكرها ، عدو البعد القومي ، عدو البعد الديني الحقيقي ، لأن الصراع بين الحضارات ، الحضارة المسيحية الغربية - وأنا لا أقصد دينها لأنها لا تقوم على دين أو تدين - والحضارة العربية الاسلامية - ولا أقصد بالاسلام الدين فقط - هو صراع دائم ومستمر منذ أن نزل الاسلام حتى الآن وحتى أن تنتهي الأرض وما عليها .

والثالوث الشرير هو عدو البعد الاجتماعي أيضاً ، لأن البعد الاجتماعي يعني أن يكون الانسان العربي قوياً وواصلاً إلى حد الكفاية وقادراً على أن يحمي أرضه ومنجزاته وثرواته . واستتباعاً لعداء هذا الثالوث الشرير للأبعاد الثلاثة فهو بالضرورة ضد البعد التحرري لأن الاستعمار ، قديمه وجديده ، والصهيونية يتناقضون معنا تناقضاً أساسياً ، لأن الاستعمار يريد أرضاً لكي ينهبها ويريد قلب العالم ليضع قواعده العسكرية ولتكون هذه المنطقة منطقة نفوذه السياسي والعسكري ، ويريد شعباً متخلفاً ليشكو من الفاقة ومن ذلّ السؤال ومن المرض والفقر والجهل والظلم ومن الاستعمار أيضاً ، يريد أن يحتل الأرض ويستعبد الناس .

إذن أركان الثالوث الشرير هم أعداء الأمة العربية وهم أعداء الأبعاد الأربعة للناصرية وتلك من أهم ملامح النظرية الناصرية أي أنها حددت الأعداء بشكل واضح جليّ وحددت الأداة التي يمكن أن واجه بها هذا العدو بشكل واضح ومحدد وذلك أصبح حقيقة أساسية أرقى من القانون ومن النظرية ومن الظاهرة .. وهذا ما غفلنا عنه في زماننا الحالي ، بعد غياب القائد حيث لم نعد نعرف اعداءنا .

من ناحية أخرى ، على الصعيد القومي ، لنا عدوين أساسيين : عدو خارجي وعدو داخلي . العدو الخارجي هو الاستعمار والصهيونية وهو لا يريد وحدة الأمة العربية لأنها إذا توحدت هذه المنطقة في دولة ديمقراطية اشتراكية تقدمية لكانت خطراً كبيراً عليه بل نهاية لكل مؤامراته .

والعدو الداخلي من مصلحته أيضا أن لا تتم هذه الوحدة ، وهو يتمثل بالأنظمة جميعها بلا استثناء التي تعمل على تفتيت وحدة الأرض العربية وعلى عدم وصول هذه الأمة إلى شكل الدولة ذات المضمون الاجتماعي والتقدمي لأن ببساطة شديدة جداً ، التناقض الرئيسي بين جماهير هذه الأمة وبين القوى الرجعية في نفس المكان ونفس الزمان ينبع من أن التوحد ضد مصلحة هذه الأخيرة وضد مصيرها بينما من جانب آخر هو لمصلحة تلك الجماهير . وحيث يوجد هذا التناقض لابد أن يوجد الصراع ولابدّ أن يوجه العداء ومن المؤسف بل من الغباء والجهل أن تلجأ في عملية التوحّد إلى عدونا الخارجي أو إلى عدونا الداخلي ، إذ من الطبيعي أن نضعهم على حد سواء في موقع التناقض والصراع والعداء لمصلحة الأمة .

إذن عبدالناصر بمنهجه العلمي الهادىء حدد أعداء الأمة تحديدا نهائيا وقطعيا ومن أجل ذلك لم يرتبط بأي نظام ولم يتوجه إلى أي نظام من الأنظمة العربية بل ولم يهادن هذه الأنظمة إلا في لحظات قليلة استعدادا لمعارك جديدة ، وإذا تنبهنا لحقيقة هذا التحديد فلن تختلط عندئذ الأمور ولن نخلط بين العدو والصديق وسنضع أقدامنا في أول الطريق . إن حرية الأرض العربية لا تتجزأ وحرية المواطن العربي على الأرض العربية لا تتجزأ ، ولا ينبغي لأي واحد منا أن يشعر بأنه حر في مكان ما على أي أرض طالما ان ثمة انسان مستعبد على ارض فلسطين أو على أي أرض عربية أخرى . إن حريته منقوصة نقصاً يدمرها ويفسدها وينفيها . هذه هي ملامح الناصرية باختصار شديد ، أبعاد أربعة واضحة بلا فلسفة ولا تعقيد وكل مواقف وقرارات القائد عبدالناصر تؤكدها واحدة بعد الأخرى . هذه هي ملامح الناصرية لكن ما هي الدعاوى التي توجه إليها .

الدعاوى التي توجه إلى الناصرية :

فيما قرأت وفيما سمعت وفيما أعلم ، أن الدعاوى التي توجه إلى الناصرية هي ثلاثة : يزعمون أن هناك غياب للنظرية ، وبعض القوى يزعم انه كان هناك غياب للديمقراطية وبعض القوى يدّعي أنه كانت هناك قسوة في معاملة بعض التيارات المعارضة لعبدالناصر من خلال الأجهزة .

الدعوة الأولى : الناصرية لا تملك نظرية ... المعروف أن أي ثورة بالضرورة لابد أن يكون لها نظرية ولها كادر يؤمن بهذه النظرية ويدعو إليها ، ولابد أن يكون ثمة تنظيم ثوري يحرك هذا الكادر أو بتعبير آخر لابد من أن تكون هناك أداة جماهيرية تؤكد هذه النظرية وتحققها على أرض الواقع ، الماركسيون مثلاً يزعمون أنه ليست هناك نظرية ناصرية .. وفي البداية لابدّ من إقرار أن عبدالناصر لم يدّعي أنه منظر أو فيلسوف ، لكننا نحن بعد غيابه نبحث ذلك كله ونرى ما إذا كانت لدينا نظرية نتمسك بها أم لا ؟ حتى نرد على هذه الدعوى علمياً لابد أن نحدد ماهية النظرية ! هل صحيح أنه لا توجد في العالم سوى النظرية الماركسية ؟.

لينين قال عن الماركسية أنها ليست نظرية وإنما هي مجرد برنامج عمل ثوري .. النظرية بمفهومها العلمي هي ذلك البناء الفكري المتسق المتكامل المتنامي الذي يقدم تحليلاً لواقع اجتماعي معين في فترة تاريخية بقصد تغيير هذا الواقع .

وهذا البناء الفكري يحدد المشكلات الجوهرية ويحدد حلولها الجذرية ويحدد القوى الطامحة في التغيير والقوى المضادة له كما يحدد أدوات التغيير وأسلوبه . هذه هي النظرية بمعناها الذي اتفق عليه المفكرون عموماً .

فهل في الناصرية مجموعة أفكار متكاملة متنامية متسقة تحدد لنا ملامح نظرية أم لا ؟ وهل البناء الفكري للناصرية متسق أم متناقض ؟ بمعنى أنه لا يوجد تناقض داخلها كما لا تتناقض مع المنهج العلمي . والناصرية كما أفهمها وكما أعرفها بأبعادها الأربعة الرئيسية التي عرضتها ، متكاملة مترابطة ترابطاً عضوياً ليس بينها تناقض لا في جزئياتها ولا في كليتها كما أنها لا تتناقض مع العمل على أية صورة من الصور بل إنها تقف مع العلم ومع الدين أيضا . والدين حقيقة مطلقة أساسية في نفوسنا وفي عقولنا .. والحقيقة فوق العلم .. الحقيقة العلمية فوق القانون العلمي ، والقانون العلمي فوق النظرية ، والنظرية فوق الظاهرة .

إن ملامح النظرية الناصرية تتفق مع العلم وتتفق مع الدين ولا تتصادم معهما وليس هناك إطلاقاً تناقض فيما بينها ولا بينها وبين ما هو خارجها ، وهي متكاملة لأنها تبحث جوانب المجتمع كله ولا تترك أي جانب منه للصدفة ولا للارتجال . لكنها لم تتعرض للجانب الفلسفي تاركة الفلسفة للدين والتراث ولمعطيات العلم .

أما النظرية الماركسية فقد تعرضت لهذا الجانب وقدمت المادية الجدلية منهجاً تستخدمه في النظر لكل الأمور ، منها مثلاً أنها طبقته على التاريخ فقدمت المادية التاريخية . رغم عدم تعرض الناصرية للجانب الفلسفي فإن فكرة التكامل فيها موجودة ، ليس هذا فحسب فهي أيضاً تتميز بأنها متنامية أي انها لا تقف عند حدّ وتقول هذا هو نهاية المطاف وإنما تقبل التطور لمواجهة المشكلات المتجددة التي تنتهي عند حد معين . إن الذي يدّعي أن أفكاره نهائية ومطلقة انما يضع نفسه في موقع الاله لأن الحقيقة المطلقة الوحيدة هي الحقيقة العلمية والحقيقة الكونية الدينية .

إن المنهج العلمي الناصري جعل ملامح النظرية الناصرية متسقة ، متكاملة ومتنامية أيضاً . وميزة التنامي فيها ، التي تقول بوجود ثوابت ووجود متغيرات أيضاً ، كانت سبب خصوبتها فالميثاق مثلا بعد أن ناقشه وأقره المؤتمر الوطني عام ١٩٦٢ حدد الفترة التي بعدها يجب أن تتم إعادة النظر بما تضمنه وهي عشر سنوات .

طبعاً هناك ثوابت لا تتغير وهناك متغيرات تخضع للنقاش والتبديل من مكان إلى آخر ومن وقت لآخر .

لقد حددت الناصرية وكشفت عن المشكلات الأساسية : الاستعمار ، القهر ، التسلط ، التخلف ، الجهل ... وحددت الحلول المناسبة لهذه المشكلات ، وحددت القوى الاجتماعية الجماهيرية العازمة على التغيير أي على مواجهة تلك المشكلات وحلّها ، وهي القوى العاملة المنتجة أو ما يسمى بتحالف قوى الشعب العامل . كما حددت القوة المضادة للتغيير وحددت أسلوب التغيير وهو الثورة الشاملة في كل جوانب الحياة .. لا تجزىء ولا تدرج وحددت أيضا أداة التغيير الثوري أي التنظيم القومي الثوري الواحد . إذا بناء متكامل متسق غير متناقض ومتنامي ، يحدد مشكلات هذا المجتمع وحلولها بشكل مفصل وعلمي طبقاً لظواهره ووفقاً لعلم الاجتماع .

من جانب آخر ، حتى ولو أن النظرية الناصرية لم تكتمل بعد فعلينا مسؤولية إكمالها مستخدمين المنهج الناصري ومعتمدين على الثوابت التي لا ينبغي أن نحيد عنها مطلقاً ومنطلقين من الواقع العربي وليس من أي واقع آخر . وهناك محاولات عديدة جرت وتجري ، بلورت وتبلور ملامح النظرية الناصرية وقد نشرت في أكثر من مجال يمكن العودة إليها .

إذاً غياب النظرية دعوة فاسدة يدّعيها من ينسخون نظريات أخرى ثبت أنها غير صالحة للتربة العربية .

وإذا كانت النظرية الماركسية حقيقة علمية أو قانوناً علمياً فنحن نسأل كيف ولماذا تشرذمت الماركسية وتعددت مدارسها ؟ هناك ماركسية صينية مثلا مختلفة عن الماركسية الأصلية .. إن لينين نفسه أجرى تعديلات خطيرة في أسس الماركسية أسموها هم تطويرات لكنها في الحقيقة تغييرات جذرية في أسس النظرية الماركسية ومن هنا نجد أنها في الاتحاد السوفياتي لم تعد ماركسية وإنما أصبحت ماركسية ـ لينينية ..

الحزب الشيوعي الايطالي مثلا له نظرة مختلفة في الماركسية وكذلك الحزب الشيوعي الاسباني والحزب الشيوعي الفرنسي ...

ليس هذا فحسب ، بل في الوطن العربي ، الأحزاب الشيوعية في هذا الوطن أو الأحزاب التي تستند إلى النظرية الماركسية عموماً متشرذمة تشرذماً خطيراً في مصر مثلا ثمة عدد كبير من هذه الأحزاب .

أحد الحزبيين الكبار في الاتحاد السوفياتي كان يسألني بسخرية شديدة كم حزب شيوعي عندكم في مصر ؟ فقلت له : يجب أن ترد على نفسك .. لماذا و لأن التشرذم طبيعي وليس مصطنعاً ، فإذا توحدت الأحزاب الماركسية في حزب واحد فذلك يصبح متناقضاً مع القاعدة التي تقول بوجود ماركسيات متعددة ..

فقط عندما تكون نظرية ما واضحة ومحددة نهائياً كحقيقة علمية صحيحة ، عندئذ لا يمكن الحديث عن التشرذم ... عندئذ يصبح التشرذم غير طبيعي ومصطنع وفي هذه الحال فإن الناس غير مؤمنين بها فعلا ولا يلتزمون بها ولا يعملون وفق ما تنص عليه .

على الجانب الآخر من الواقع ، فإن التيار الديني متشرذم أيضاً ـ سأتعرض لهذا الأمر فيما بعد ـ وتشرذمه طبيعي ، لأن التشرذم هنا لا يستند إلى الخلاف على الثوابت أو على النصوص وإنما على تفسير النصوص أي على المتغيرات المرتبطة بتغير الظروف .. ليس هناك خلاف بين السني والشيعي أو بين الحنبلي والحنفي والمالكي والشافعي أو بين المسلم في مصر والمسلم في اليمن أو حتى في الصين مثلا حول وحدانية الله والعدل السماوي أو حول العبادات والصلوات أو في العقيدة .. لكن عندما ينم الانتقال الى المسائل الدنيوية وخاصة إلى مسألة السلطة ، هنا يحدث الاختلاف والخلاف ..

بعضهم يذهب إلى أن الحاكم مسؤول أمام الرعية والبعض الآخر يقول بمسؤولية الحاكم أمام الله فقط .. بعضهم يذهب إلى أن الشورى ملزمة وبعضهم يقول بأنها غير ملزمة .. بعضهم إلى أن الخلافة ركن أساسي في النظام الاسلامي وبعضهم يقول بأنها ليست كذلك ... الخ . من هنا عندما يوضع الاسلام موضع الحكم فيصبح متغيراً بتغير الزمان والمكان وضمن هذا الفهم ليس غريباً أن يتولى سيدنا أبو بكر خلافة رسول الله (صلعم) بطريقة معينة ، ويتولى سيدنا عمر بطريقة أخرى ، ويتولى سيدنا عثمان بأسلوب ثالث وعلي أيضا بطريقة رابعة ... وهناك نتساءل ما العبرة من هذا ؟

العبرة في أنهم يريدون أن يعلّموا الأمة أن الحكم في الاسلام متروك للعقل البشري أي للاجتهاد يرتيه كما يشاء وفق مصلحة المجتمع أو الأمة . لكن النتيجة المترتبة والطبيعية لذلك أن تشرذم التيارات السياسية الاسلامية وليس التيارات الدينية الاسلامية . وهنا نأتي إلى الناصريين .. هل يستطيع ناصري بأي شكل من الأشكال أو في أي مكان أن ينفي عن الناصرية ميزتها المواجهة للثالوث الشرير ، الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية ؟ نعم يستطيع أن ينفي لكنه عندئذ وفي نفس الوقت ينفي عن نفسه صفة الناصرية ..

والأمر كذلك إذا أنكر الناصريون البعد القومي ، وحدة الوطن العربي ، وحدة وحرية الأرض العربية ، وحدة وحرية المواطنين العرب .. إذا أنكروا ذلك فهم ليسوا ناصريين إطلاقاً .. وأيضاً وأيضاً إذا أنكر الناصريون البعد الاجتماعي أو البعد الديني بمفهومه الشامل فهو ليس ناصرياً ...

وبالتالي فعنصر التوحيد في الناصرية هو العنصر الأساسي الصلب الذي يجمع الثوريين الناصريين من الآن وإلى ان تتحقق الناصرية غاياتها الأساسية في تحقيق دولة واحدة ديمقراطية ذات مضمون إجتماعي تقدمي .. أما بعد ذلك فيمكن أن نختلف على المتغيرات .. أما الآن وحتى تتحقق تلك الغايات ، وهي ما تزال بعيدة المنال ، ليس هناك مبرراً أو مجالاً للتشرذم أو التشتت على الاطلاق شأننا شأن التيارات السياسية الأخرى .

الدعوى الثانية : غياب الديمقراطية : وهي أخطر الدعاوي لأن ما تعاني منه جماهير الأمة العربية على امتداد الوطن العربي كله هو غياب الديمقراطية وبالتالي ليس لها أي دور فيما يجري . إن القهر والقمع والتسلط سمة أساسية من سمات الأنظمة العربية بدون استثناء بدرجة أو بأخرى .

ونحن كناصريين نؤمن بشدة بأنه بغير الديمقراطية لن يتوافر للجماهير العربية أية قدرة لتحقيق غاياتها الأساسية في الحرية ، وفي التقدم وفي الدولة الواحدة ذات المضمون الاجتماعي المتقدم .

إن اتهام الناصرية بغياب الديمقراطية عنها هو اتهام خطير لابد من مناقشته وتفنيده . ومن هنا يجب أن نميز أولا بين الناصرية وبين العهد الناصري ، بين الناصرية وبين الظروف التي مرت بها الثورة حتى سنة ١٩٧٠ .

من الممكن أن تكون بعض الممارسات قد أبعدتنا قليلا عن بعض الأهداف لأسباب ما في ظروف معينة قد تكون كافية أو غير كافية للتبرير المقنع .. إنما النظرية الناصرية بأبعادها الأساسية كما نؤمن بها وكما عرفنا ملامحها تستند إلى ركيزة أساسية وهي الديمقراطية ، لأنه حتى يمكن للجماهير العربية أن تقوم وتتحمل أعباء النضال لتحقيق الأهداف لابد أن يكون الانسان مشاركاً ، مشاركة حقيقية ، في ثروات بلاده وفي ادارة هذه الثروات ، ومساهماً ، اسهاماً حقيقياً ، في النضال من أجل الغايات التي تؤمن بها هذه الأمة .

وبغير الحرية ، بغير الديمقراطية لا يمكن أن يتحقق ذلك . ومن هنا تأتي خطورة دعوى غياب الديمقراطية عن الناصرية .

أولا يجب تحديد من يرفع هذه الدعوى ؟.. إنها القوى الرجعية وبعض القوى الماركسية ، وهذه الأخيرة ترفعها بإستحياء شديد .. أما الأولى فهي التي ترفع عارضة الاتهام وتملأ الدنيا صراخاً ..

مصداقية دعوى غياب الديمقراطية :

وهنا أود أن أبدأ بالتحدث عن مصداقية هذه الدعوى .. فهل هناك صدق في هذا الشعار الذي يرفعونه ؟

أ ـ إن هذه الدعوى هي لعبة تلعب بها القوى الرجعية لأنها لا تؤمن بالديمقراطية ولا بأي شكل من أشكالها : لا الليبرالية ولا المركزية ولا الجماهيرية ولا أي شيء أبداً .. والتاريخ والواقع يؤكدان ذلك وينفيان مصداقية رافعي هذه الدعوى .

والواضح تماماً أن القوى الرجعية ترفع هذا الشعار اذا ضمنت أنه سيحقق لها مصالحها بالتسلط والتحكم في الجماهير وقدراتها وفي النهب والاستغلال .. في اسبانيا مثلا عندما اختلف الناس حول شكل السلطة : ملكية أم جمهورية ؟ احتكموا للاستفتاء العام المباشر تحت سلطة الملك وفي ظل حكومة الملك أجري الاستفتاء سنة ١٩٣٣ وكانت النتيجة اختيار الجمهورية ، لكن القوى الرجعية لم تكن تريد هذه النتيجة وظن أن وسيلة الديمقراطية هي التي تحقق لها عكس هذه النتيجة ..لكن ذلك لم يحصل فماذا حدث ؟ جاءت القوى الرجعية بقيادة فرانكو وحزب الفالانج (الكتائب) لتسحق الشعب الاسباني ...

ولو أن الجماهير انتهت لاختيار الملكية لكانت صفقت القوى الرجعية وملأت الدنيا ضجيجاً وصراخاً وهتافاً ، لكن لأن الديمقراطية لم تحقق لهذه القوى النتيجة التي استهدفتها فإنها ذبحت الديمقراطية وذبحت الجماهير أيضاً في الحرب الأهلية الاسبانية . وانضم دعاة الديمقراطية في جميع أنحاء العالم إلى الشعب الاسباني ، وإنضمت القوى الرجعية من كل مكان لتساعد القوى الرجعية الاسبانية .

في المانيا حصلت نفس الحكاية سنة ١٩٣٣ ... الحزب الاشتراكي كان لديه سبعة ملايين عضو وكان يرفع راية الديمقراطية ودستوره كان عظيماً وراقياً حيث كان ينص على تمتع الشعب الألماني كله بكل الحقوق المقررة فيه .. ماذا كانت النتيجة ؟ تقوم القوى الرجعية وتستخدم هتلر لكي تذبح الديمقراطية نهائياً .

في تشيلي ماذا حدث ؟ يتم انتخاب الليندي رئيسا للجمهورية في انتخابات حرة ديمقراطية طبقاً للمعايير الغربية الليبرالية ... وطبعاً أن يأتي ماركسي أو تقدمي رئيساً للجمهورية بانتخابات برلمانية ديمقراطية لا يتوافق مع مصلحة القوى الرجعية التي قامت بالتخطيط مع المخابرات المركزية الاميركية بانقلاب عسكري لتذبح الديمقراطية وتسحق أكثر من ٦٠ ألف مواطن من تشيلي والحبل على الجرار .

في مصر يأتي أنور السادات ويزعم أنه ديمقراطي وإن ما كان ، كان حكماً شمولياً قاهراً ويدغدغ أعصاب وعواطف الجماهير بكلمة الديمقراطية . بناءً على نصيحة محمد حسنين هيكل له كما اعترف . ويستمر كذلك مستخدماً الديمقراطية حتى أصبحت عائقاً لأهدافه في العمالة والتسلط والاستغلال لمقدرات الشعب وخيانة قضايا الأمة .. عندئذ تصدر القوانين بعد انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ لكي تحكم بالاعدام على كل من يخرج في مظاهرة ومؤبد لكل من يناصر مظاهرة ، ويبدأ بذبح الديمقراطية . ليصل بعد ذلك إلى وضع كل القيادات الشعبية من مختلف التيارات والقوى السياسية في السجن وكانت خاتمة مذابحه للديمقراطية .

إذن القوى الرجعية ترفع هذا الشعار لتحقيق مصالحها ، وعندما لا يتم ذلك فإنها تدوسه بأقدامها وتذبحه .. وإذن لا مصداقية على الاطلاق في هذا الشعار وتلك الدعوى . أما علمياً فالأمر أيضاً لا يختلف لأن المعنى الحقيقي للديمقراطية هو أن الجماهير المسحوقة وهي التي تمثل الأغلبية الساحقة في أي شعب ، يجب أن تشارك في الحكم ، وعندما تفعل ذلك فإنها لا تسمح بأي نهب أو استغلال ولا تسمح بالظلم والتخلف ... الخ وكل هذه الأمور تتناقض مع مصالح القوى الرجعية .. إذن علمياً الديمقراطية الحقة تتناقض وتتعارض وتتصادم مع القوى الرجعية التي ترفع شعار الديمقراطية زيفاً .

ولننظر إلى خريطة الوطن العربي ! هل تطبق القوى الرجعية الشعار الديمقراطي ؟ في السعودية ، في البحرين بل في الكويت وغيرها .. وغيرها .. هل القوى الرجعية المتحكمة في مصر تؤمن حقاً بالديمقراطية .

إن حقائق التاريخ والواقع والممارسة تنفي مصداقية الشعار الديمقراطي الذي ترفعه الأنظمة العربية كلها . إذن الدعوى التي ترفعها القوى الرجعية وتواجه بها الناصرية هي دعوى زائفة وعارية عن الصحة .

الديمقراطية في عهد عبد الناصر :

لكن لن نقف عند هذا الحد بل ينبغي أن ندخل في الموضوع لنرى هل كانت هناك ديمقراطية في عهد عبد الناصر ؟

وكما قلت سابقاً هناك فرق بين الناصرية وبين عهد عبد الناصر !.. لكن من المؤكد أن عبد الناصر كان يحاول بمنهجه الصحيح أن يزيل عوائق الديمقراطية التي تكمن في غياب الوعي وفي التخلف .. في الجهل الذي كان سائداً وفي الفقر والمرض ... كلها كانت عقبات حقيقية أمام الممارسة الصحيحة للديمقراطية السليمة ... وكلها ترتبط بالبعد الاجتماعي أي بالحرية الاجتماعية .

لقد أعطيت مصر حريات سياسية سنة ١٩٢٣ وقبل ذلك وبعده لكن الجماهير استمرت محرومة من الحرية الاجتماعية فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة القهر والاستغلال والحرمان باسم الديمقراطية المزيفة .

وفق المنهج الناصري الحرية السياسية والحرية الاجتماعية جناحان لا يمكن التحليق بدونهما أو بدون أي منهما . فحتى نمارس الديمقراطية بشكل سليم لابد من إزالة الظلم الاجتماعي والتخلف والاستغلال والجهل .

والآن لننظر إلى الواقع في مصر !.. كان الواقع يقول أنه ثمة اكثر من ٨٠٪ أميين وأنه كان هناك أكثر من ٦٥٪ دون حد الحياة وان القدرة على التعبير - وهي جوهر الديمقراطية السليمة - كان حقاً محصوراً بأربعين أسرة موجودة في مصر أما العدد القليل جداً ممن تعلموا أو أتيحت لهم فرصة التعلم في مصر أو في الخارج كانوا أبناء الباشاوات والاقطاعيين .. إذن الحرية السياسية كانت تعني الحق في التعبير والقدرة على التعبير وإمكانية التعبير للقوى الرجعية ليس إلا ، أما الأغلبية المسحوقة للشعب لم يكن لديها القدرة على التعبير .

فالتعبير اما ان يكون في الصحافة أو في الاجتماعات أو في السياسة أو في الأحزاب .. ولم يكن هناك إطلاقاً أي فرصة للمسحوقين بالمشاركة في أي مجال من تلك المجالات وبهذا كانت القوى الرجعية المستغلة تفرض نيابتها عن كل الشعب ، شاء ذلك أم أبى وهذا معناه أن أقلية صغيرة لا تتعدى الواحد في المئة هي التي تحكم ، وهي التي تعبّر وهي التي تتمتع بكافة الحقوق المقررة دستورياً .. وكما نقول في مصر إذا كان الدستور قال بحرمة المساكن ، أي أن لمسكن الانسان حرمة لا يصح انتهاكها أبدا ... فكيف لمن ليس له مسكن أن تتحقق له هذه الحرمة ... في مصر الآن مئات الألوف يسكنون القبور ، فكيف نطبق حرمة المسكن في القبور .. لابد أن نعدل الدستور ليقول بحرمة المساكن والقبور أيضاً ، أي لساكني القبور من الأحياء وهذا أمر مضحك ومبك معاً .

إذن حتى تتحقق الحرية السياسية لأي انسان لابد أن تتحقق له لقمة العيش بكرامة وعزة وليس كما يحصل الآن في مصر حيث يوضع الانسان بين حد الموت وحد الحياة فينهك الأربعة وعشرين ساعة من أجل أن يحقق لنفسه فرصة أن يعيش فقط ..

وهذا بالطبع لا يمكن له إطلاقاً أن يجد لنفسه فرصة التحدث في مشكلات مجتمعه ومشكلات أمته أو أن يشارك فيها .

إذن يجب أولاً أن نوجد حد الكفاية للانسان لكي يناقش قضايا مجتمعه ولكي يثور ولكي يكون أداة من أدوات التغيير ، اما عندما يكون دون حد الكفاية فإنه لن يستطيع إطلاقاً إلا أن يكون وقوداً تستخدمه قوى أخرى اما قوى رجعية وإما قوى متطرفة ... وعبد الناصر كان يعمل بالثورة الشاملة وبالحلول الجذرية السليمة على إزالة عقبات الديمقراطية من خلال اشباع حاجات الانسان الأساسية كحقوق اساسية وليس منحة أو تكرماً منه لكي ينطلق الانسان مشاركاً في حكم بلده وتقرير مصيره ولكي يكون أداة فعّالة قوية وقادرة على التغيير .

أنا لم أتكلم عن الاتحاد الاشتراكي لأنني كنت عضواً فيه ولا اللجنة المركزية والمناقشات التي كانت تجري فيها والمشاركة على قدم المساواة مع عبد الناصر ولا اللجنة السياسية العليا .. لم يكن هناك أي قرار الا ويعرض ويناقش رأساً برأس نقاشات حادة وشديدة .. لقد كنت أحد المعارضين في اللجنة المركزية لكل ما يجري بضراوة شديدة وكنت آمناً على نفسي وكنت أعلم أن هذا ما يريده عبد الناصر .

مقولات الفكر الغربي تقول أن من يملك يحكم .. وهذا صحيح !. أجل إذا كانت الوسائل الرئيسية من صناعة وزراعة وغيرها مملوكة للشعب وليس لطبقة أو لفرد أو للدولة ، من المؤكد أن الشعب هو الذي يحكم . وبكلمة أخرى إذا بدأت أنت تمتلك نصيباً متساوياً في ثروة بلادك ، في وسائل الانتاج كلها في الصناعة والزراعة والخدمات ، من المؤكد أنك تشارك في حكم هذه البلاد . أنا أزعم أن عبد الناصر لم يصدر قراراً واحداً بشكل منفرد ، بل كانت قراراته ملبيّة ومترجمة لقرارات الأمة ولطموحات جماهيرها ..

الشعب العربي ، والشعب المصري جزء منه ، بدأ منذ القرن الخامس عشر بالمطالبة بحرية الوطن وحرية المواطن .. كان قرار الأمة كلها من خلال جمعياتها الثورية ومن خلال نداءاتها المستمرة انه لابد من تحرير الأرض العربية وتحرير المواطن العربي من النهج الاستعماري الخارجي .. عبد الناصر استجاب لهذا القرار الصادر عن الأمة والمعبر عن آمالها وتطلعاتها وفجر الثورة سنة ١٩٥٢ فاتحاً الباب واسعاً أمام جماهير هذه الأمة وأمام أجيالها لتنفيذ ذلك القرار .

والآن نتساءل كيف كانت تدار مؤسسات الدولة أو كما قلت سابقاً ، كيف كانت تدار وحدات الانتاج

ووحدات الخدمات ؟ وسأتناول القرية كقاعدة أساسية للمجتمع وكوحدة صغيرة تصلح نموذجاً للوحدات الكبيرة .

كانت القرية قبل الثورة تدار من قبل العمدة بالارهاب العائلي والعشائري وكان الفلاحون مسلوبي الارادة ، كانوا عبيداً أو اقناناً في الأرض .

في الانتخابات كان العمدة هو الذي يضع الأصوات في صناديق الانتخابات وهو الذي يجرّ معه الفلاحين للتصويت لفلان أو لفلان لأنه يملك القرية ولأنه ذو عائلة قوية ، وبإختصار كان هو الذي يفرض إرادته على الناس ويفرض ما يريد نهباً وسلباً لارادة وكرامة الناس .

بعد الثورة الناصرية ماذا حصل ؟

على مستوى الانتاج جاءت ، بعد الاصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على الفلاحين ، جاءت الجمعيات التعاونية الانتاجية ، وكان القانون يمنع من يملك قيراطاً واحداً أن يدير هذه الجمعيات ، ويسمح فقط للمعدمين أن يتولوا إدارتها .

هذه الجمعيات كلت تجاربا في غاية الخصوبة وللأسف لم يكشف عنها بشكل واضح وهذه هي مسؤوليتنا وهذا هو تقصيرنا للأسف .

والجمعية التعاونية كانت تدار بواسطة خمسة أشخاص منتخبين بالانتخاب الحر المباشر وكانت تمول الانتاج داخل القرية والتجميع الزراعي . وقد جاء ذلك بعد الاصلاح الزراعي وقوانينه التي لا تحدد الملكية فحسب وإنما تحدد عقود الايجار وكيفيتها وشروطها بشكل حقق فعلا شعار أن الأرض لمن يزرعها .

ومن هنا كانت بداية إزالة التسلط على لقمة العيش وعلى إرادة الفلاحين في القرية ، إذ أن المالك لم يعد صاحب اليد الطولى في الانتاج وفي عائده ولم يعد يستطيع أن يطرد فلاحاً أو أن يزيد مليماً واحداً عن سبعة أمثال الضريبة التي لا تتجاوز عشرين جنيهاً للفدان الواحد .

وعندما تشكل الاتحاد الاشتراكي العربي ، بدأت لجنة الاتحاد الاشتراكي كخطوة أولى تفرض انتخاب العمدة بعد أن كان إرثاً منذ عهد الفراعنة ، ليس هذا فحسب بل انها بدأت هي تتحكم في مصير القرية وهي التي تصدر القرار .

ومثلما كانت كل الأمور يتم تطبيقها بالتدرج خطوة اثر خطوة كذلك الأمر على صعيد القرية حيث صدر قرار في أواخر الستينات بإلغاء منصب العمدة نهائيا لأنه لم يعد له أي مبرر .

والآن سأحكي لكم واقعة خاصة ، إن عمّاً لي كان مالكاً وكان يعتبر نفسه فدائي القرية لأنه وقف بوجه قرية كبيرة أخرى كانت تريد أن تغزو قريته وتسبي نساءها فقتل إثنين وهرب الباقي .. إذن أصبح المالك والفدائي إضافة إلى أنه كان نائب العمدة وهو عمي الثاني ، لمدة ثلاثين سنة . وتقدم عمي للانتخابات في الاتحاد الاشتراكي ومعه الكلّاف (الكلّاف هو الشخص الذي يسكن في زريبة المواشي يهتم بها ويرعاها) وكان اسمه « سي عيشه »و عند النتائج يفشل عمي وينجح « سي عيشه » فيقول لي عمي : ما هذه الأيام السوداء ؟ وأسأله لماذا ؟ فيجيب بأنه فدائي البلد ونائب العمدة لمدة ثلاثين سنة وهو المالك ورغم ذلك نفشله وننجح « سي عيشه » الذي كان يخدم عنده ! ويضيف بأن أيامنا هذه هي أيام سوداء . لكن الوجه الآخر للمسألة يقول هذه هي الديمقراطية الحقيقية .. هذا على صعيد القرية ، والقرية هي الوحدة الأساسية في المجتمع العربي .

ولقد وصل الأمر إلى درجة أن المالك كان يخفي أنه مالك ، ويتظاهر بأنه لا يملك شيئا لماذا و لأن القيم أيضاً تغيّرت .. الفلاح كان يشعار بالعار عندما يقول بأنه فلاح لكن بعد الثورة أصبح الاقطاعي يتظاهر بأنه فلاح ..

بهذا الصدد سأقص عليكم قصة طريفة .. عندما كنت في المدرسة الابتدائية كان أحد ابناء عمومة أبي مدرّساً ، وفي يوم من الأيام جاء المفتش .. وعادة كان الجميع يرتعب من المفتش المدرّس والعمدة والقرية كلّها .. وجاء المفتش إلى صفّي وكنت شاطراً وكان كلما يسأل سؤالا أصرخ أنا يافندم .. أنا يافندم .. وهو يسمح لي بالاجابة .. فاستغرب أن يجيب ولد صغير هذه الأجوبة وبهذا الشكل .. بعد ذلك سألني المفتش عما يعمل والدي ؟ والحقيقة أنني لم أكن أعرف ، إذ أن والدي كان مدير مدرّسة طنطا الثانوية وطرد منها عام ١٩١٩ وعاد إلى القرية بعد ذلك .. فما كان مني إلا أن أجبته ان والدي يشتغل فلاح .. فجاء قريبي المدرّس وهو خائف من المفتش وضربني قائلا : صاحب أطيان ياكلب .. لأنه كان عاراً كبيراً جداً أن أقول أن أبي فلاح ..

وجاء عبدالناصر وأصبح الناس يتسابقون على الافتخار بأنهم فلاحون وكذلك الأمر بالنسبة للعمال .. حتى اننا عانينا الكثير وكان أمامنا صعوبة كبيرة في وضع المعايير من أجل أن ينجح في الانتخابات العامل الحقيقي وليس من يدعي انه عامل .

هذه هي اذن التجربة التي حدثت في عهد عبدالناصر في الوحدات الأساسية للمجتمع وللدولة ... وأنا أقول بأن عبدالناصر كان يعلم تماماً ماذا يفعل وهو يزيل عقبات الديمقراطية ويذيب الفوارق بين الطبقات .. كان يعلم أن هذا هو الطريق لكي يصل الانسان الى المشاركة في تطوير وادارة مجتمعه ولكي يحوز القدرة على التعبير وامكانيات التعبير والتغيير أيضاً . وإذا كانت البنية الأساسية للدولة تدار بهذا الشكل الديمقراطي فمن المنطقي أن ينعكس ذلك على صعيد البناء الفوقي أولاً بأول وصولاً إلى الديمقراطية السليمة . وللأسف إن هذه التجربة لم تأخذ حقها من الدارسين والملاحظين والباحثين والمفكرين أيضاً . وليس معنى هذا اننا وصلنا فعلا إلى ممارسة الديمقراطية السليمة وأن طبقة الواحد في المئة تخلّت عن مصالحها واستغلالها وامتيازاتها عن قناعة وعن رضى .. هذا كلام لا أستطيع أن أزعمه لأن عملية التغيير الثوري لا تتم بين يوم وليلة وكما لا تتم للكثير عن قناعة واقتناع وبالتالي لابد ، في البداية ولفترة معينة ، من القهر ومن العنف الثوري حتى يتوازن المجتمع سياسة وعلاقات .. وهذه الفترة الصعبة كان يخوضها عبدالناصر ببطولة خارقة في صراع اسطوري خطير ضد الأعداء في الداخل والخارج ... واعداء الداخل أكثر خطراً من أعداء الخارج ... ويكفيه بطولة أنه كان يواجه البيروقراطية المصرية ، وهي من أقدم وأخطر البيروقراطيات في العالم .. لو أخذنا هذا المعيار فقط ونطلعنا إلى ما أنجزه عبدالناصر في تلك الفترة الزمانية القصيرة على صعيد الديمقراطية لاقتنعنا بأن ذلك كان كافياً للتطلع إلى ديمقراطية كاملة سليمة مع أخذ العلم بأنه كان يتم بدون إراقة دماء .. بثورة بيضاء وليس كما فعل ستالين حيث ذبح الملايين من البشر .

إذن أستطيع القول بأن دعوى غياب الديمقراطية هي دعوى مزيفة وفيها من الظلم أكثر مما فيها من العدل وفيها من الكذب أكثر مما فيها من الصدق .

الدعوى الثالثة : دعوى التعذيب : والتعذيب تتبناه فئتان : التيار الديني أو بالتحديد جماعة الاخوان المسلمين التي اعتقل العديد من أعضائها سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٦٥ أما الفئة الثانية فهي التيار

الماركسي : والحقيقة أن معظم التيار الماركسي تخطى جراحه الشخصية وتجاوزها وهذا مايجعلنا نقدّره فيها ، ونمتنع عن تناول موقفه بالمناقشة .

أما بالنسبة للتيار الديني فلا يزال الحقد عميقاً فيما يتعلق بممارسات التعذيب ، التي تمت .. وأرجو أن يكون واضحاً أنني لست هنا لكي أبرر أي شيء ، لقد كنت سجيناً وأعرف ماذا يفعل التعذيب بالسجين السياسي ..

على كل حال نستطيع أن نقول أن بعض الناصريين يقولون أن قضايا التعذيب فيها مبالغات خطيرة وأن التجاوزات التي تتحدث عنها القوى الرجعية والتيار الديني مضخمة .. والبعض قال أن عبد الناصر لم يكن يعلم بما يحصل وأن تلك كانت تقع مسؤوليتها على عاتق الأجهزة وأنه في غياب تنظيم ثوري ليقوم بالثورة لأن الذي قام بالانقلاب هو تنظيم « الضباط الأحرار » الذي كان يهدف إلى تغيير السلطة فيما عبد الناصر الذي كانت لديه ملامح النظرية وملامح الثورة الاجتماعية وملامح التغيير الجذري .

إذن لم يكن ثمة تنظيم شعبي ليستولي على السلطة وتستعين به الثورة من الداخل وتستند إليه وبالتالي يتقلص دور الأجهزة ..

والأجهزة هذه قديمة ومدربة وذات ولاء خطير جداً لوظائفها ومع غياب التنظيم من الطبيعي أن يكبر دورها وأن تقوم مصلحة السجون بالتعذيب ... الخ .. هذه حقيقة يجب أن نأخذ منها الدروس والعبَر ..

أم هل كان يعلم عبد الناصر أم لا ؟ أنا أستطيع أن أزعم ، على المستوى الانساني ومن خلال وقائع كثيرة جداً أن عبد الناصر لم يكن يعلم الحدّ الذي وصلت إليه الأجهزة في انحرافها في مواجهة التيارات وخاصة التيار الديني .. وأستطيع القول بأن قوانين عبد الناصر فيما يتعلق بمعاملة السجناء السياسيين كانت إنسانية بكل معنى الكلمة مثلا كان السجين السياسي يحتفظ بوظيفته وعندما يخرج من السجن يعود إليها والى نفس الدرجة من حيث المرتب والعلاوات .

أما ما تم مع الناصريين بعد انقلاب ١٥ مايو مختلف تماماً عن ذلك .. النواب الذين كانوا أعضاء في مجلس الأمة تحولوا إلى فتح أكشاك لبيع السجائر والكعك وفصلوا من وظائفهم وبأكثر من قرار جمهوري .

ورغم ذلك نرفض التعذيب تحت أي ظرف من الظروف لأية قوة معارضة وهذا على مستوى الأمة كلها ...

إذن لقد قامت الأجهزة بإنحرافات وتجاوزات يجب أن نربطها بالظروف التي تمت فيها وإنما لا يمكن أن نلصقها بالناصرية ونعتبرها أحد مميزاتها .

وعليها فنحن نرفض تلك الانحرافات والتجاوزات ، كما رفضناها من قبل ، ونرفضها أيضاً في المستقبل تحت أي ظرف وتحت أي مبرر وفي كل مكان . تلك هي الدعاوى الموجهة للناصرية وهي في غالبيتها خاطئة وكانت تبررها ظروف موضوعية معينة ، لأن الثورة بالنسبة للبعض لا تتم بالرضى والقبول والاقتناع ولا بالمناقشة والحوار . ولأن التغيير الجذري للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ولهياكلها وفرض قيم جديدة بديلاً عن القيم الزائفة القديمة كان لابد أن يتسم بالعنف الثوري لفترة

محدودة من الزمان لا أعتقد بأنها تجاوزت مداها نظراً للظروف التي مرت بها مصر من النضال المتعدد الأشكال والمجالات والأعداء في الداخل والخارج .

والسلام عليكم .

الجلسة الثانية

في الجلسة الاولى تحدثنا عن أبعاد الناصرية الرئيسية ، وقلنا ان هذه الابعاد متكاملة مترابطة بشكل لا يقبل التجزئة ، فالبعد التحرري هو مقدمة للبعد القومي ، والبعد الاجتماعي هو المضمون الحقيقي للوحدة العربية او للدولة الاشتراكية الديمقراطية الواحدة ، فضلا عن ان كل بعد من هذه الابعاد لا يقبل التجزئة ، فحرية الوطن العربي واحدة وحرية المواطن العربي لا تقبل التجزئة ... وعندما تحدثنا عن الجوانب الاساسية للبعد الاجتماعي قلنا انها مترابطة ترابطا وثيقا لا يقبل التجزئة ايضا .. كما تحدثنا عن الدعاوي الموجهة للناصرية ، طبعا الدعاوي الرئيسية لأنه هناك دعاوي كثيرة لكنها هزيلة ولا تستطيع الوقوف على قدميها امام أية مناقشة .

غياب التنظيم وردة مايو .

من مثل هذه الدعاوي ، غياب التنظيم القومي الناصري وفشل الثورة في انشاء مثل هذا التنظيم على مستوى الامة كطليعة متقدمة تستطيع ان تواجه الردة وتحافظ على الثورة . وبالطبع هذا نقد أساسي لكن الاجابة عليه معروفة سلفا وهو انه لا يمكن إطلاقا لاي زعيم او قائد ان يفرز تنظيما من خلال السلطة مهما اعطي من شفافية الثورة ، وشفافية القيادة ، لان عملية الفرز غير ممكنة موضوعيا ، فعندما تدعو السلطة لتنظيم قومي او حتى تنظيم وطني سيتقدم اليه الناس جميعا ، يتقدم المخلصون ويتقدم الانتهازيون ، ويتقدم الرجعيون المتخفون . وتحت عباءة السلطة لا يمكن ان يتم اي فرز موضوعي ، وبالتالي مهما بلغ عبد الناصر من ثورية ومن قدرة ومن حدس اسطوري لم يكن بامكانه مطلقا ان يخلق التنظيم الثوري ، لان التنظيم الثوري مناخه الحقيقي ان يواجه السلطة وان يستولي عليها ، تحت المعانات والقمع والمشانق ، والتعذيب ، والسجون ، ...وهذا هو الفرز الحقيقي ...

ويبدو ان الاجابة الوحيدة لردة مايو ان الفرز قد تم وان الاعداء قد فرزوا فرزا جيدا .. وان المخلصين قد ثبتوا وان المنافقين قد ظهروا .. بل ان الذين باتوا سباتهم الشتوي طوال ثمانية عشر عاما قد خرجوا من جحورهم لكي يطعنوا الامة في الصميم بالسم الناقع . اذن الاجابية الوحيدة التي تنتجت عن ردة مايو كانت هي هذاالفرز الذي لم يستطع القائد بل لم يكن بامكانه ان يقوم به لكي ينشيء تنظيما ثوريا حقيقيا قائما على التجربة وقائما على الامتحان والاختبار ..

وواضح أيضا انه عند غياب القائد وفي ظل عدم وجود تنظيم ثوري مكتمل ، ذي اعضاء ممتحنين ،ومفروزين افرازا صحيحا من خلال المعاناة كما قلت ومن خلال العطاء المستمر ، وليس من خلال عباءة السلطة مهما كانت هذه العباءة ثورية وعظيمة وقادرة ، في ظل ذلك استطاعت قوى الردة ان تستولي على السلطة ، وكان ذلك مأساة كبيرة نتجت عن غفلة كبيرة لا أريد ان أقول عن غباء شديد ، عندما تم اختيار السادات لتولي المسؤولية بعد جمال عبد الناصر ، هذا الاختيار الذي تم على اساسين :

١ ـ أنه اضعف من في القيادة حتى يكون التنظيم قويا ، لأنه حيث يكون القائد قوياً يكون التنظيم ذو دور ضعيف ، وبالتالي كانت الفكرة ان يختار القائد ضعيفا بعد عبد الناصر حتى تكون القيادة الجماعية للجنة المركزية المكونة من مئة وخمسين عضوا أصيلا ، وخمسين عضوا احتياطيا هي المسيطرة ... ونسي الذين أخذوا بهذا التحليل او اغفلوا ان الضعيف كما تستطيع انت ان تسيطر عليه ، يستطيع

اعداؤك ان يسيطروا عليه أيضا ، واذا كان لديك من الوسائل ما يمكنك منه ، فان اعداءك لديهم الف وسيلة ليتمكنوا منه أيضا .

٢ ـ اننا اخترنا غبيا لكي يتولى السلطة على اساس ان الذكاء الجماعي هو القادر على ملىء الفراغ الكبير الذي تركه جمال عبد الناصر ، لكننا اغفلنا نقطة اساسية ومقولة جوهرية وهي ان الغبي يشكل نقطة ضعف يستطيع اعداؤك الدخول من خلالها مستخدمين قدراتهم وامكانياتهم ، ووسائلهم الاحتيالية ، وبكلمة أخرى أن الغبي الذي تستطيع ان تمتطيه يستطيع غيرك وخاصة اعداؤك ان يمتطوه أيضا باكثر من رجل واكثر من سرج .

هذا ما حصل بالفعل ، اختير السادات كأغبى الأغبياء وكاضعف الضعفاء ، وتصور الذين اختاروه أنهم يستطيعون أن يمتطوه وان يوجهوه ، لكن كان هناك من يتربص ولديه القدرة الأكبر ، والاسلوب الأذكى والوسائل الاذكى للاستيلاء عليه ، وهكذا كان .. وتمت الردة وسيطرت القوى المضادة التي لم ينته وجودها في مصر في عهد عبد الناصر الذي كان دائما منذ عام ١٩٥٢ وحتى غيابه يحذر من هذه القوى ، ويقول بان هناك حزب مضاد موجود داخل السلطة وان القوى المضادة موجودة داخل مصر ، وان كسر انيابها وتقليم أظافرها ومخالبها لا يكفي ، اذ لا بد من القضاء عليها . ومن ناحية أخرى ان ما يسمى بمجموعة مايو وللاسف لم تكن مجموعة واحدة وبالتالي كانت اضعف من ان تشكل قيادة جماعية قوية تستطيع فعلا السيطرة على السلطة والحفاظ على الثورة .

والحقيقة كما تعلمون ان الثورة ضربت من داخلها وليس من خارجها ... ولو أن الثورة واجهت اعداءها الحقيقيين الذين باتوا هذا السبات الشتوي الطويل لمدة ثمانية عشر عاماً لما استطاعوا قهرها ولما استطاعوا الاستيلاء على ذمة الحكم .. فلو ان فؤاد سراج الدين او القوى الاقطاعية هي التي خرجت من جحورها لقاومها الشعب مقاومة عنيفة ولانتصر عليها لكن المشكلة الحقيقية ان الثورة قد اكلت نفسها من داخلها .. فان انور السادات كان عضو مجلس قيادة الثورة وظل الوحيد الذي يقف الى جانب عبد الناصر ثمانية عشر عاماً في حين تساقط الآخرون الذين لم تكن لهم ابعاد قومية او ابعاد تحررية او ابعاد اجتماعية بدرجة كافية . ثم ان السادات كان نائباً لرئيس الجمهورية وبالتالي فهو محسوب علينا ، وعندما تأتي الضربة من الداخل تكون مقاومتها صعبة للغاية لان الامور تكون ضبابية ومضللة الى حد عدم الوضوح والرؤية ، حيث يختلط الصادق بالكاذب ، والصحيح بالباطل .. ثم ان معظم الثورات في التاريخ ضربت من الداخل : الثورة الفرنسية مثلا ضربها بونابرت وتحولت من الاخاء والحرية والمساوات الى الاستعمار والقهر والظلم ، حزب الكومنتانغ الصيني الذي اسقط القيصرية والفاشية ، ضرب على يد شان كاي شيك عديل رئيس الحزب صان يش صان ثورة كرومويل ضربت من الداخل حتى ان الملكية عادت بعد قرون ، واخرجوا كرومويل من قبره وحكموا عليه بالشنق ..الخ .

هذه الحقيقة لم تكن واضحة لدينا تماما وهذا قصور في العلم والرؤية نحن نسلم به لكن ذلك لايبرر خطأنا او خطيئتنا على الاطلاق . خطأ خطير آخر اسهم في ردة مايو ، ان الذين اختاروا السادات لم يدركوا التراث الحضاري العريق في مصر الذي يضفي على مؤسسة الرئاسة طابع القداسة ، وهذه نقطة ضعف في مصر من الواجب دراستها جيداً ، والتعامل معها لكي يتم تغييرها .

والحقيقة اننا يجب ان ندرس جوانب القوة وجوانب الضعف في الانسان العربي بحيث نرسخ الاولى منها ، ونعمل على تغيير الثانية . من ناحية أخرى ان الثورة لم تصنف القوى المضادة بشكل كامل ،

وهذا تراث مصري .. نحن تاريخيا نكره الدم ، والحضارة المصرية القديمة هي الحضارة الوحيدة التي لم تقدم دماً للآلهة ، بل كانت تقدم القمح والمواشي ، والحيوانات حتى عروس النيل التي كانوا يقدمونها عندما يزيد فيضان النيل عن ستة عشر ذراعاً ، كانوا يرمون في النيل عوضا عنها تمثالا لها يضعونه مطابقا للاصل . هذا تراث حضاري موجود ، وكان السادات يعلمه جيداً ، ولذلك لم يصادم الشعب بالدم عندما قامت المظاهرات اعوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣ ..الخ . بل ان هذا التراث كان مؤثرا في الذين تقدموا باستقالتهم من مواقعهم عندما تكشفت نيات السادات وتلك خطيئة أخرى .

والحقيقية أنه عندما نشب الصراع بين السادات وبين مجموعة مايو كانت خطة عبور قناة السويس ، بل خطة التحرير ، كانت جاهزة وكان موقع عليها من الجميع ، من رئيس الاركان ومن القائد العام للجيش والخبراء السوفيات ، ما عدا رئيس الجمهورية ، وكان صلب الجيش الاساسي يتكون من خريجي الجامعات والمدارس الصناعية والثانوية ، وكانت خطط العبور : عرانيت واحد ، وعرانيت اثنين ، تستهدف في الخطوة الاولى الوصول الى الممرات ، والثانية الوصول الى حدود مصر الدولية ، والثالثة تحرير الضفة الغربية والجولان ، وكان توقيت المعركة ، الذي تأجل بسبب غياب عبد الناصر ، محددا في الاسبوع التالي مباشرة للصدام مع السادات في ٢٥ ابريل ١٩٧١ . واعتقد الذين نكسوا عن مواجهة السادات ان اي صراع سيحدث تفتيتاً في الجيش وفي الشعب مما ينعكس سلبيا على المعركة لذلك اختاروا التضحية بانفسهم ، والدخول الى السجن متخلين عن المسؤولية ، اعتقادا منهم ان ذلك سيمنع حصول الصراع وسيسمح للجيش ان ينفذ خطة التحرير تاركين الحكم للتاريخ . انها شفافية مثالية مثيرة للعجب ، بل للسخط والنقد ، لانه من المفترض قبل دخول معركة لا بد ان تفتح الدمل الموجودة في جسمك اولا ، لتدخل المعركة صحيح البنية موفور الصحة ، للاسف انهم تصوروا من منطلق وطني شفاف ، تصورا ان الرسالة الخالدة التي حملهم اياها عبد الناصر ، والتي ينتظرهم الشعب ان يؤدوها هي تنفيذ خطة التحرير ، على أمل ان يأتي المنتصرون المضحون بالدم ليحسموا الخلافات فيما بينهم ، وبين السادات .. لكن ذلك كان مثالية واهمة وكما يقول نهرو ، وهو قول حق « لا تكن مثاليا فتسقط في الوهم ولا تكن واقعياً الى درجة مطلقة فتسقط في الانتهازية ، ولكن يتعين عليك ان تكون مثاليا وواقعيا » . وهكذا تركت قوى الردة لكي تفعل ما فعلته بحق الامة وبحق قضاياها وأهدافها .

تلك هي الاسباب الحقيقية للمأساة التي ما زلنا نشهد نتائجها ، اما الوقائع التفصيلية عن علاقات بالسفارة الاميركية ، وعن الاتحاد الثلاثي ، وعن معارضة وعن تأجيل ذلك الى ما بعد المعركة .. كل ذلك يدل على حسن نية بالغة تصل الى حد البلاهة او الغباء . للاننا كنا نعلم ان السادات كان لايريد من الاتحاد الثلاثي الا الشكل فقط وانه كان يريده ورقة ليؤجل المعركة ، بينما كنا نريد المعركة ومن خلال المعركة اي من خلال العطاء بالدم والمال نصنع الوحدة ، نصنعها مع الذين يقدرون معنى العطاء بالدم والمال ... وخصمنا كان يعلم ذلك ، ولهذا السبب عارضنا الوحدة ، عارضنا الوحدة لاننا كنا نريد ان نستفيد من تجربة الوحدة الرائدة بيننا وبين سوريا تلك التجربة التاريخية العظيمة الخصبة ، بل الاسطورية لكنها كانت تجربة عاطفية ..

ان الوحدة ، وهذا ما يجب ان نفهمه كوحدويين ، لا تقوم الا بشرطين اساسيين :
الأول : تنظيم سياسي واحد ، والثاني : جيش واحد ، فاذا لم يقم التنظيم السياسي الواحد فلا وحدة ، وأذا قامت الوحدة ولم يكن هناك لها جيش واحد فلا ضمان لاستمرار الوحدة لانها ستكون مهددة بالتفسخ من

اعداء الداخل والخارج .

والحقيقة ان وحدة ١٩٥٨ كانت بالدرجة الاولى وحدة عاطفية لانه يم يكن هناك تنظيم سيا
واحد ، كما ولم يتوحد الجيش . جيش الشمال وجيش الجنوب ، وكل ما عدا ذلك من اسباب كا
اسباب مساعدة . من هنا لم نكن نريد ان تتكرر التجربة دون الاستفادة من دروسها فقلنا التحرير اولا
واتباع الاسلوب العلمي لتحقيق الوحدة ثانية ولتأكيد صحة الشرطين الاساسيين للوحدة أذكر بعض
الامثلة :

- في الاتحاد السوفيات ستة عشر قومية في جمهوريات مستقلة ذات لغات مختلفة ، واديان مخت
، وعرقيات مختلفة ولكن يجمعها كلها التنظيم الواحد والجيش الواحد وبالتالي لا يمكن ان يكون هن
انفصام ولا انقسام .

- في الولايات المتحدة الاميركية منابت حضارية مختلفة واصول مختلفة ، ديانات مختلفة في ولاي
مستقلة ذات قوانين خاصة ، لكن يجمعها التنظيم الواحد ، سواء كان الحزب الجمهوري ، ام الحز
الديمقراطي اللذان ينتشران في كل الولايات ، الى جانب الجيش الواحد .

- في الباكستان : بلد واحد ، قبائل واحدة ، ذات تاريخ واحد ودين واحد لكن مأساتها انه كان ه
تنظيمان منفصلان احدهما يسيطر في الشرق (عوامي) والثاني في الغرب الحزب الديمقراطي
وبهذا توفر العنصر الاول للانفصال ، لكن الجيش كان جيشاً واحدا من هنا حصل انفصال بنغلا
(باكستان الشرقية) بالقوة وباراقة الدماء ، ولو كان الجيش جيشين لحصل الانفصال دون اراقة نق
دم واحدة . طبعا هنا لا اهمل العناصر الأخرى وانما اركز على العوامل الاساسية فالبعد الجغرافي
الشرق والغرب ساعد في حصول انفصال بنغلادش ، اذن علينا ان نهتم فعلا بايجاد التنظيم القو
الواحد كأداة ضرورية لصنع الوحدة والا فلا وحدة حتى ولو بعد آلاف السنين ، وعند الاستيلاء ع
السلطة لا بد من بناء الجيش الواحد الذي يصهر الجميع من مختلف اجزاء الوطن في وحدة واحد
حقيقتين علميتين لايمكن ولا يصح اغفالهما ابدا .

اما عن تجنيد السادات في المخابرات المركزية الاميركية فهذا ثابت في وثائق عديدة موجو
حيث ان كمال ادهم عديل الملك فيصل ورئيس المخابرات السعودية هو الذي جنده عام ١٩٦٩
ويمكن التأكد من ذلك في كتابات هيكل ومذكرات كيسنجر ، وفانس ، ان مخطط الاستيلاء على الس
والتخلص من المجموعة الناصرية الراديكالية كان قائما من قبل ان يأتي السادات الى الحكم
مصيبتنا اننا لم نكن ندري ...

هذه هي حقائق ١٥ مايو عرضتها عليكم اجمالا لكن بامانة شديدة نتائج ردة مايو :

ماذا حدث نتيجة الردة ؟ أو ما هي نتائج ردة مايو ؟

ان ردة مايو حققت للعدو ما كان يريده .. بل ما فشل العدو ان يحققه بعدوانه عام ١٩٦٧
الخارج حققته له ردة مايو من الداخل وقد تم ذلك بالتضليل ، وبالتدريج ، وبوسائل جهنمية خط
لاستخدامها آلة الفكر الامبريالي من المخابرات الاميركية والمعاهد الاميركية ، ونفذها ع
وخونة . ابرزهم الطبقة الحاكمة في مصر كان انور السادات رمزا يعبر عنهم .

هناك نتائج عديدة لردة مايو لكن من اخطر ما نتج عنها ستة أمور :

١ - هزيمة الثورة وتصفية سيطرتها على الدولة بالكامل

٢ ـ حصار حركة الثورة العربية واضعافها ومحاولة تفتيتها

٣ ـ انحياز السلطة الكامل في مصر للمخططات الامبريالية والدخول في فلك الاستراتيجية الاميركية

٤ ـ فرض الصلح مع والاستسلام للعدو الصهيوني والقبول بالهيمنة الصهيونية على المنطقة

٥ ـ عزل مصر عن الأمة العربية ، اضعافا لمصر ، واضعافا للأمة العربية .

٦ ـ ضرب التحول الاشتراكي ، وافساح المجال امام الاحتكارات الرأسمالية العالمية والطفيلية المصرية .

انني سوف أتناول النتيجتين الأولى والسادسة حتى لا أطيل عليكم فيما يتعلق بالنتيجة الأولى يمكن القول ان العدو من خلال هزيمة ١٩٦٧ لم يحقق أي شيء على الاطلاق مما كان يريد تحقيقه .. لماذا ؟ لأن الاحتلال العسكري لأي دولة ليس مسألة اساسية وخطيرة طالما ان الارادة السياسية وإرادة النضال ومواصلة النضال ما زالت موجودة .

لقد أصابت الهزائم العديد من الشعوب والحكومات عبر الزمان والمكان ، لكن من حافظ على ارادة النضال لم تقتله الهزيمة ، بل كانت محطة وقف عندها للانطلاق من جديد وتحقيق النصر .. ان الحرب عادة يجب أن تنتهي باستسلام وبنتائج سياسية ، واذا لم تود الى ذلك فلا تنتهي ، بل تبقى قائمة ، بل ان المهزوم يبقى اقوى من المنتصر ، لأن هذا لم يستطع تحقيق النتائج التي يريدها ، ولأن ذلك رغم الهزيمة حافظ على ارادته السياسية وعلى قراره في مواصلة النضال مستفيدا من دروس الهزيمة ، مما يجعل الهزيمة مقتصرة على الجانب العسكري الذي يمكن تعويضه واستعادة المبادرة فيه .

النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما هزم في أحد ، لم يستسلم بل واجه الأمر بالاصرار على مواصلة النضال والاصرار على قتال حتى النصر .

انكلترا هزمت في دانكارك هزيمة لم يعرف لها التاريخ الانكليزي مثيلا ، لكن ارادة النضال ومواصلة القتال حولت الهزيمة إلى محطة لصنع النصر .

الاتحاد السوفياتي عقد معاهدة مع هتلر وهو يعلم ان هتلر سيهاجمه ، وكان أحد جنود الجيش الالماني وهو شيوعي ، قد التجأ إلى السوفيات وابلغهم بحقيقة الأمر وغزا هتلر الاتحاد السوفياتي ، واستولى على مساحات هائلة من أرضه وعلى جانب كبير من مقدراته ، لكن الاتحاد السوفياتي لم يحن رأسه ، ولم يقبل المساومة او الاستسلام لأنه لم يفقد ارادته وكانت النتيجة كما تعلمون ... الخ .

كل الدولة معرضة لأن تهزم وهذا ليس خطيراً دائما . الخطير ان تهزم الارادة السياسية فيتم الاستسلام وتتم التنازلات للعدو ..

وفي الحقيقة ان الشعوب والأنظمة لا تعرف معادنها ، الا عند الهزائم وليس في حالات الانتصار ، لماذا ؟ لأن في حالة النصر تختفي اخطاء كبيرة وعديدة ، بينما في حالة الهزيمة تظهر كم انت قوي ، وما مدى صحة الأسس التي تعتمدها ..

ومن الثابت ، وخاصة الآن ، اننا في الهزيمة كنا من أقوى الأقوياء وإرادتنا السياسية كانت أقوى مما كانت قبل الهزيمة لدرجة أن عبدالناصر كان يقول : « إحنا مش حنزيل آثار العدو وبس .. إحنا حنرجع لحدود سنة ١٩٤٧ ، حنرجع لنأخذ النقب وغيرها » . لقد عبّرت فعلا شعارات تلك المرحلة عن قوة ارادتنا وعن قرارنا بمواصلة النضال فنشأت اللاءات الأربعة الشهيرة : لا صلح ، لا تفاوض ، لا اعتراف بالعدو الصهيوني ولا تفريط بحقوق الشعب العربي الفلسطيني » ، وكان واضحا بعد

الهزيمة ان النظام يتميز بالثورية ، وان معدنه أصيل ، وانه قادر على الصمود واستيعاب الهزيمة .

يجدر هنا بالذكر ، ان مفاجأة العدو كانت كبيرة عندما استطاع بعد هزيمته في حرب اكتوبر ان يحقق ما فشل عن تحقيقه بعد انتصاره في حرب يونيو ، وفي مذكرات كيسنجر يتضح ذلك ، عندما يتحدث كيسنجر عن أنه سأل السادات ماذا يريد ؟ فأجابه السادات لا .. لا .. قل لي ماذا يريدون ؟ وأنا سأعطيك ... إذن كان العدوان الخارجي عام ١٩٦٧ يستهدف اسقاط نظام عبدالناصر الثوري لكنه فشل ، لماذا ؟ لأن الجماهير العربية كلها عن بكرة أبيها خرجت تعبّر عن رفضها للهزيمة ورفضها لتنحي القائد وعن مبايعتها له من جديد في اجماع لم يسبق له مثيل بشكل اذهل العالم كله ...

ولم يخيب القائد آمال هذه الجماهير ، فاشرف شخصيا على تكوين جيش من صلب هذه الأمة ومن خيرة أبنائها ، ومن أفضل شبابها ، حيث كان في الجيش أكثر من اربعين الف خريج جامعي ...

في الشهور الثلاثة الأولى بعد الهزيمة كان الاقبال على الانخراط في الجيش مذهلا بل كان الشعب العربي في مصر على أروع ما يمكن ان نتصور من تجاوب وسعي دؤوب حثيث على اعادة البناء بشكل يبعث في النفس الاحساس بالقدرة على تفتيت الجبال وتجاوز كل العوائق والصعاب مهما كانت كبيرة ... الاستغلال ضرب .. السلع كانت متوفرة لدرجة مذهلة .. المطالبات الصبيانية انتهت بل حتى الجريمة توقفت ... كل انسان كل شيء كان شعاره ان ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة . وان للمعركة الأولوية على كل ما عداها .. لكن الردة من الداخل اجهضت كل شيء ، وتحقق للعدو ما كان يريده .

كما سبق وقلت احدى نتائج ردة مايو هي ضرب التحول الاشتراكي ، وافساح المجال أمام الرأسمالية العالمية ، والطفيلية المصرية لكهب موارد هذا الشعب وجعل اقتصاده تابعا ، ذليلا خاضعا ، منكسرا ومرتبطا بالهبات والمعونات والشروط والقيود .. اقتصاد مرهون كالأرض المرهونة في سيناء سواء بسواء ..

ان ما يجري على الساحة المصرية رهيب وخطير للغاية ... فالحالة الاقتصادية وصلت إلى درجة فاجعة .. وطبقاً لآخر الاحصاءات يوجد في مصر الآن أكثر من سبعة عشر الف مليونير ، تبدأ ثروات بعضهم بمليون لتصل لدى البعض الآخر إلى أكثر من عشرة آلاف مليون . فمن أين تكدست هذه الثروات ؟ من الخارج ؟ لا .. من الداخل ! نهباً من مال الشعب واستغلاله بلا حدود ، وامتصاصاً لدم الفقراء حتى آخر قطرة في كل شريان معروف بلا رحمة ولا شفقة .. عبر المخدرات ، والسموم ، والفراخ والأطعمة الفاسدة لم يتورعوا عن اي شيء يحقق لهم تكديس الثروات .

في مصر الآن طبقة طفيلية خطيرة تتحرك وتنهب ، وتتسلط بفجور لم يسبق له مثيل لا في تاريخ مصر ولا في تاريخ غيرها . فالرأسمالية رغم الاستغلال والنهب قامت بدور تاريخي ما . من خلال عملية بناء المصانع والمزارع الى غير ذلك ، وعملية التنافس بينها تخلق نوعا ما من التقدم ، رغم ان ذلك يتم على أساس استغلال بشع ولا انسانية لا متناهية إلا أنه يفعل شيئا ما يقدم للمجتمع شيئا .. بحيث انه في لحظة من اللحظات عندما تتوفر الظروف ، وتتحرك قوى الشعب بتحقيق العدالة فانها تجد ما بنته هذه الرأسمالية المستغلة فتستفيد منه .. لكن الطفيلية في مصر لم تبن شيئاً على الاطلاق بل خربت ما استطاعت تخريبه مما كان قد بني في فترة التحول الاشتراكي ، وكل ما فعلته انها تمص دم الشعب بشكل او آخر ، وتحول هذا الشعب إلى سلعة تبيعه وتشتريه في سوق النخاسين ، فاصبحنا دولة مستعمرة لشعب مهاجر .. والهجرة في مصر ظاهرة جديدة وخطيرة جدا لقد كان الانسان في مصر

مرتبطا بأرضه طوال آلاف السنين ، ومنتمياً إليها انتماء خرافيا بل كان مثالا للانتماء بحيث ان خروج اي فرد من العائلة من قرية الى قرية كان يعتبر سفرا يهز مشاعر وأحاسيس العائلة ، فيسيطر عليها جو من القلق والكآبة الى حين عودته .

الآن الانسان المصري من خلال ما حدث اصبحت عينه على مصر والعين الأخرى على الخارج متصورا ان حل مشاكله يكمن في الهجرة والهروب .. متصورا انه سيخرج إلى السعودية او الكويت او الخليج او فرنسا او انكلترا الى آخره لكي يحل مشاكله ، وينشىء بيتا ، ويجد عروسا ، ويشتري سيارة إلى آخره ، وهكذا اصبح الوضع في مصر خطير إلى درجة ان الأمراض الاجتماعية ، انتشرت بحيث تكاد تقول ان الانسان في مصر اصبح اما منحرفا ، واما مرتشيا ، واما منعزلا ينتظر الخلاص واما هاربا إلى الخارج ليحل مشاكله الداخلية والأنظمة العربية ساعدت وتساعد على ذلك خاصة من حيث انها فتحت باب العمل امام الشعب المصري .. ووجود اربعة ملايين ونصف في الخارج يسهم من ناحية في حل مشكلات تلك الأنظمة ويوفر لها يداً عاملة رخيصة الأجر ومن ناحية أخرى يخفف من ضغط النقمة الشعبية على النظام في مصر . لأنه لو ان مصر ما تزال في حدودها ولو ان الانتماء ما زال كما هو لقامت ثورة أطاحت بالطبقة الطفيلية وبالسلطة المعبرة عنها .

ومن هنا ومع بدء عودة العاملين المصريين في الخارج الى مصر بأعداد كبيرة فان الأزمة ستتفاقم والأوضاع تصبح مرشحة لانفجارات متنوعة وعديدة .. وهكذا يجب ألا نستغرب عندما نعلم ان مئات الألوف يسكنون في القبور في القاهرة ، وفي نفس الوقت أكثر من ثلاثمئة الف شقة خالية . لأن المواطن لا يستطيع أن يدفع ٢٠٠ أو ٣٠٠ جنيه ايجاراً للشقة الواحدة لذلك يسكن الناس القبور بل ويتنازعون عليها ويرفعون الدعاوي القضائية . مأساة خطيرة تفتت صدر أي شريف على مستوى الأمة كلها ينبغي أن تزول ، ولن يتم ذلك إلا بعد التخلص من الطبقة الخائنة التي تستغل مقدرات مصر ومقدرات شعبها .

كما يجب ألا نستغرب عندما نجد ان سلم القيم تغير بل انه انحدر كثيراً بحيث ان التعامل الانساني بين الناس ولم يعد أحد يهتم إلا بنفسه نتيجة حالة الضيق الشديدة وأزاء الوضع الاقتصادي المخيف .. فالانسان عادة يبحث عن وجوده اولا وبعد وجوده يبحث عن قيمة وجوده ثم عن قيمة العلاقات بينه وبين غيره ، وبعد هذا عن قيمة العلاقات بينه وبين الله وبينه وبين الناس والأشياء ... والانسان في مصر الآن يبحث عن وجوده كيف يحققه ؟ وكيف يحافظ عليه ؟

وما يجري في مصر هو صورة مما يجري في الوطن العربي ككل ، ولا يعتقد أحد منا انه ثمة اختلاف جوهري فالمشاكل الواحدة وطبيعة الأنظمة واحدة والعدو واحد وان تنوعت المظاهر والأشكال والأساليب .. الأمة العربية كلها غارقة حتى أذنيها في مستنقع آسن من العار لا يستطيع أحد منا ان يتبرأ منه .. وشخصيا كنت بريئاً منه عندما كنت في السجن لكني الآن لست بريء وأحس اني في هذا المستنقع الى أذني ..

حرب قذرة مدمرة بين العراق وإيران ... تشرذم وتقاتل في صفوف المقاومة الفلسطينية .. اقتتال في المغرب العربي يهدر الأرواح والطاقات دون سبب مشروع او مبرر معقول ... الهيمنة الاميركية الصهيونية هي السائدة في المنطقة ، تقيم العروش وتسقطها ، تحدد الحدود وتلغيها ، تحدد من يعيش حرّاً ومن يعيش عبداً ، تحتل عاصمة عربية ، وتقتل الحوامل وتذبح الشيوخ والأطفال ولا أحد ينطق لا أنظمة ولا جماهيراً ..

هنا أعود بذهني إلى أن أسر امرأة واحدة ايام المعتصم أثار الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، كان ذلك في فترة انهيار الدولة العباسية ، وجاء نداء تلك المرأة الاسيرة ، وامعتصماه ! فتنادي العرب والمسلمون من كل أنحاء الأرض لكي يهزموا العدو ويحرروا المرأة ..

اما الآن فالناس تقتل وتذبح بالآلاف المؤلفة وتبقر البطون الحوامل ويمثل بها أبشع تمثيل والأنظمة سعيدة راضية لأن مصالحها محققة .. مأساة خطيرة نحمل عارها ونحمل وزرها جميعاً ... كل من كان حياً وفي صدره نسمة هواء يحمل وزرها .

٤٠

ونتساءل ما هي الأسباب ؟ في نظري ان الأسباب الأساسية لهذا التردي الخطير هي ثلاثة :

١ ـ عدم وضوح وضبابية تحديد قوى الثورة وقوى الثورة المضادة ، وعدم اتخاذ الموقف الحاسم من كل منها .. لم نستطع ان نتبين قوى الثورة ونكتشفها ونلتحم بها ولم نستطع كشف قوى الثورة المضادة بشكل حاسم ومواجهتها وتصفيتها في عقر دارها .

٢ ـ غياب السمة القومية عن معارك الأمة العربية فبقدر ما كان عبد الناصر والثورة العربية تجعل السمة القومية اساساً في كل معاركها بالقدر نفسه بل وأكبر منه كل الحروب الآن وكل المعارك أقليمية بل أخطر من ذلك ان بعضها طائفي وقبلي وعشائري ليس هناك قضية واحدة لها سمة القومية حتى القضية الفلسطينية ، قضية الأمة العربية التي قامت من أجلها الجامعة العربية ، والتي تنادي العرب لها كنضال حقيقي منذ سنة ١٩٤٧ ، وما بعده الآن تحاول المقاومة الفلسطينية وتدفعها الى ذلك الأنظمة ان تجعل السمة الوطنية الاقليمية هي الأساس تحت شعار القرار المستقل .

وهذا لا يصح ان الأرض العربية ملك لكل الأمة العربية للمواطن العربي الفلسطيني فهي ملك لكل مواطن عربي آخر ، وكما يتحمل مسؤولية تحريرها ، المواطن العربي الفلسطيني يتحمل كذلك هذه المسؤولية ، كل مواطن عربي أياً كان وفي أي مكان .

هذا فضلا عن ان هذا الشعب القليل العدد الموزع في الشتات لا يمكنه وحده مواجهة العدو ، لأن العدو الحقيقي ليس الصهيونية وحدها ، بل والامبريالية العالمية من ورائها ، والرجعية العربية بجانبها .. فكيف يمكن للمقاومة الفلسطينية ان تواجه هذا العدوان الفظيع وحدها ، الا من خلال أمتها رغم انها أنبل الظواهر التي أفرزتها الأمة العربية ؟

٣ ـ وهذا أقبح العيوب ، وأقبح الأسباب ، اننا لم نستطع ان نبني التنظيم القومي الواحد الذي يستطيع أن يواجه كل التحديات حاشداً كل طاقات الجماهير وقائداً لها باتجاه تحقيق الغايات .

ان التنظيم القومي هو علم تعبئة الجماهير وقيادتها ، والجماهير بغير تنظيم تشبه صرخات عالية تطلق في الهواء لا مردود ولا نتيجة لها . « انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير لو توفر لها التنظيم الثوري لانتهى السادات منذ ذلك الحين ولنتذكر ان السادات آنئذ ، كان قطع الأمل ، فهرب عائلته إلى السودان ، وجهز طائرة للهرب ، وعندما ذهبوا إليه قال لهم ، ابعدوني ولا تقتلوني ...

اذن بغير التنظيم لا قيمة لأية آراء ، ولا للاجتماعات ولا للدراسات ، من هنا علينا جميعاً ، ان نتحمل مسؤولياتنا ، وخاصة الشباب في دفع الظروف لتكوين التنظيم القومي الثوري الواحد .. بدون التنظيم لا أمل بالنصر أو بالتحرير ، وكما يقول جون جورثر « ان مصدر قوة عبد الناصر الرئيسي هو انه يرمز إلى تحرير وتقدم الجماهير ، فلقد أعطى لشعبه ما لم يكن يملكه وهو الأمل » .

وعليه لا يصح اطلاقا لأي ثوري ان يدخل اليأس الى قلبه طالما كان المنهج لديه ودليل العمل ايضا

والطريق أمامه واضحة في عزمه تصميم وارادة واصرار لابد أن يكبر ويحقق الأهداف ، لأنه كما يقول عبدالناصر : « ان النصر عمل والعمل حركة ، والحركة فكر والفكر فهم وإيمان وهكذا كل شيء يبدأ بالانسان » .

التيارات السياسية في مصر

في الواقع سأختصر بشكل شديد لاتاحة الفرصة للحوار وأرجو ألا يكون الاختصار مخلا ..

في مصر حركة سياسية واسعة ، هناك أحزاب رسمية قائمة ، وهناك تيارات سياسية قوية جدا في الشارع المصري .

ـ الحزب الوطني : وهو الحزب الحاكم ويتكون من الطبقة الطفيلية التي استولت على مقاليد الحكم بعد ردة مايو ، والمؤثرين البارزين فيه هم الذين كونوا ثرواتهم من النهب والاستغلال .. او بكلمة أخرى قيادة الحزب تتمثل في مجموعة من الطفيليين الانتهازيين الذين يأكلون على كل الموائد . وخاصة المائدة الاميركية . لكن ليس لهم أي تأثير في الشارع المصري .

قاعدة هذا الحزب عددية وصورية فقط لأن لهم إمكانيات ضخمة جداً في توزيع الامتيازات وخاصة من المواد التموينية .. الى الاسمنت ، الى السيارات ، الى غير ذلك .

قيادة هذا الحزب لم تفيد المجتمع بأي شيء ولم تبن له طوبة واحدة ، ولا مصنعا ولا مزرعة ، ولا غير ذلك ، بل تقوم على نهب مقدرات الشعب مما جعلها تملك قدرات مادية هائلة فضلا عن امتلاكها لقسوة بالغة في مواجهة الشعب وعن استعداد لاستخدام التصفية ضد أي كان إذا شكل عقبة في وجه استمرار سلطتها .

في المحصلة النهائية ، إنه حزب ليس له جماهير .. والذين ينتمون إليه ، فعلوا ذلك بشكل رسمي فقط ، ليس خوفا من السلطة ، وانما ضمانا للعيش ... « راجل عاوز لحمة ، عاوز حديد ، عاوز اسمنت ، عاوز يأكل ، عاوز يشرب .. ينضم إلى الحزب الوطني لأنه بغير ذلك لا يوزع عليه أي رزق لأن الحزب هو موزع الأرزاق » .

حزب الأحرار الاشتراكيين : هذا الحزب انشأه السادات ليكمل الديكور الديمقراطي الشكلي ، لديه جريدة اسمها جريدة « الأحرار » ذات انتشار واسع .. انتشارها يعود إلى انها تفتح صفحاتها لكل من يريد أن يكتب .. يكتب فيها الناصري والرجعي وحتى الصهيوني .

هذا الحزب ليس له لا في « » ولا مستقبل له ، فضلا عن ان لا ماضي له ، الحقيقة أنه لا يستحق عناء الكلام عنه لأنه ليس له وجود على الصعيد الشعبي ، وانما كما قلت عندما بدأ السادات بتشكيل الأحزاب انشأ هذا الحزب لتكملة الديكور الديمقراطي الشكلي ، وخلق من مصطفى كامل مراد زعيماً له وزعيماً للمعارضة كي لا يكون الحكم بدون معارضة .. والمعارضة الرسمية الموجودة حقيقة تتشكل من حزبين حزب التجمع وحزب العمل .

حزب العمل الاشتراكي : هذا الحزب انشأه ايضا السادات ، لكي يسحب البساط من تحت أقدام اليساريين .. ورئيسه ابراهيم شكري كان أحد وزراء السادات الذين وافقوا على معاهدة « كامب ديفيد » المشؤومة بتحفظات ، وكان عضوا في اللجنة التنفيذ العليا ، او المكتب السياسي لحزب مصر الاشتراكي الخاص بالسادات .

جماهيرية هذا الحزب محدودة ، توفرت له من خلال نهجم السادات عليه وعلى رئيسه ، فضلا عن ان المعارضين الذين لم يريدوا الانضمام لحزب التجمع وجدوا فيه إطاراً مناسباً لانضمامهم .
قاعدة هذا الحزب عموما ناصرية ، باعتراف رئيسه ، واغلبية النواب الذين يمثلوه في البرلمان ناصريون ايضا ، وينتظرون الانضمام إلى أي حزب ناصري ينشأ .

لهذا الحزب جريدة اسمها الشعب ، وهي جيدة الانتشارلأنها من الجرائد المعارضة ، اعظم ما في الجريدة مقال يكتبه مناضل شامخ عظيم وهو فتحي رضوان هذا المناضل العريق الذي منذ أكثر من ثلاثين سنة لم يتوقف لحظة واحدة وهو من عشاق عبد الناصر ، رغم ان وضعه التنظيمي ما زال موضع المنافسة ، ثم انه يحور على احترام كافة القوى الوطنية في مصر التي تقدر كفاحه الطويل ، وتتابع مقالاته النقدية اللاذعة الشجاعة ، باحترام ولهف وتقدير شديد .
حزب العمل كما قلت قاعدته ناصرية ، وكوادره في أغلبيتها كذلك ، وكانت مواقفه تتميز بالميوعة ، لكنه يختلف عن حزب الأحرار ، ويتناقض اساسا مع الحزب الوطني ، وانا اعتبره جزء من الحركة الوطنية ، خاصة بعد تحوله إلى معارضة كامب ديفيد . وسياسات السلطة ، والحقيقة انه موضع تجاذب وتنازع بين القوى الوطنية من جهة وبين السلطة الحاكمة من جهة أخرى ، بحيث ان كل طرف يحاول جذبه إلى جانبه ، لكنه ما زال اقرب الى خندق الثوار والمعارضة .
حزب التجمع الوحدوي التقدمي : وهو حزب يرفع رايات ناصرية وشعاراتها ومبادئها بشكل لا يختلف عما نرفعه ونلتزم به الى حد بعيد ، قاعدته الأساسية ناصرية حيث انه عند نشوئه كان عدد اعضائه ١٦٠ الف عضو منهم حوالي ١٥٠ الف ناصري وما تبقى ماركسيون ، ومستقلون ، اصطلح على تسميتهم بالمتدينين المستنيرين ، والأخيرون يتعاطفون مع الناصريين لكن مع بعض التحفظات ، في الحزب تناقضات عديدة أهمها ان قاعدته ناصرية ، وقيادته في معظمها ماركسية ، رغم وجود الناصريين فيها ، والناصريون دخلوا إلى هذا الحزب وعينهم على تنظيم ناصري يجب أن يبنى ليمثل التيار ككل ، هذا الحزب يتميز بالقوة ، وبأنه حزب كادر حقيقي مدرب مما يجعله مصدر قلق داخل الحركة السياسية في مصر .
يجدر بالذكر هنا ان أحد قادته ومؤسسيه كان المرحوم الشهيد كمال رفعت وهو من أعظم الذين خسرتهم الحركة الناصرية بعد وفاة جمال عبد الناصر ، اذ كان شجاعا ، عمليا ذا ابعاد سياسية وفكرية ونضالية عظيمة ، للحزب جريدة أسمها « الاهالي » وهي اكثر انتشار من جرائد المعارضة الاخرى ، ويبرز في صفوف هذا الحزب ما يسم بالماركسيين الناصريين اي الذين هم ماركسيون أصلاً ، لكن توجهاتهم ناصرية ، حيث بعد غياب عبد الناصر شعروا ان برنامجه لم ينته بعد وان رايته وتوجهاته الرئيسية صحيحة منة بالمنة ومنهم الكثير ممن تعاونوا مع عبد الناصر مثل فؤاد مرسي ، اسماعيل صبري عبدالله ، وحسين عبد الرزاق .

قاعدة الحزب كما قلت اكثريتها الساحقة ناصرية ، وكان قد طرحت فكرة التمايز داخل الحزب اي ان تتمايز القوى الثلاثة داخل التجمع لكن الفكرة رفضت باغلبية ساحقة على اساس ان صيغة الحزب هي صيغة عبقرية جديدة من الممكن ان تصهر هذه القوى معاً لكي تبدع شكلا جديدا ... رغم كل ذلك لعب الحزب الشيوعي المصري لعبته واصبح الوحيد المتميز داخل حزب التجمع بشكل يتناقض مع لوائحه واسسه وأصوله وقواعده ، وبالتالي بدأت القاعدة الناصرية بالانصراف والخمود والاستكانة ، مما

حول الحزب تقريبا الى كوادر بدون قاعدة ، رغم ذلك تأثيره هام واكبر من احزاب المعارضة الأخرى وان كان هذا التأثير ضعيف في الشارع المصري بسبب أنه متهم بالالحاد والكفر ، وهي تهمة خطيرة جدا في مصر ، بغض النظر عن انها غير صحيحة .

حزب التجمع تخشاه السلطة لان كوادره صلبة واعية مجربة ذات خبرات مهمة في ساحات النضال ، وخاصة في السجون ، ووجود هذا الحزب هو ضروري ، وهدف استراتيجي ونحن لا نريد ان نهدمه ابدا بل ان الحوار والتعاون بيننا دائم ومتبادل .

ويجدر بالذكر هنا ان قاعات حزب التجمع مفتوحة لمؤتمراتنا وندواتنا ولكل المناسبات القومية .

والآن ما هي التيارات السياسية الرئيسية الموجودة في الشارع المصري ؟

تيار حزب الوفد : ويضم اساسا الرأسماليين القدامى الذين كانوا قبل الثورة فضلا عن كل الليبراليين في مصر حتى الذين كانوا اعداءه على مدى سنوات طويلة ، فمصطفى أمين مثلا كان يرفع خنجرا في وجه الوفد على مدى خمسين سنة ، محمد ابراهيم كامل المتهم مرتين بقتل النحاس باشا ، اسماعيل فهمي ، جلال الحمامصي .. اذن سر قوته هو انه يجمع الليبراليين الى جانب الرأسماليين الساخطين على القوى الطفيلية الجديدة والمتناقضة معها لانها لم تفسح المجال لتحول النظام الى نظام رأسمالي ، ثم انه يقوم على عدة محاور تراثية ليبرالية . وفق المعنى الحرفي للديمقراطية الغربية .. حرية التعبير ، الوحدة الوطنية ، الديمقراطية . الاستقلال الوطني . يضاف الى ذلك انتشاره بين الاقباط .

رغم عوامل القوة في حزب الوفد ، فان جوانب الضعف فيه خطيرة واهمها :

١ ـ أنه يقوم على شخصية محورية واحدة تتصف بمواصفات الزعامة واذا ما غابت (عمره ستة وسبعون سنة) غاب الحزب معها . لانه ليس للحزب مبادىء ولا افكار حيث ان ما لديه يصلح ان يكون برنامجا صالحا للقرن التاسع عشر .

٢ ـ أنه يقوم على عدة افكار ومبادىء تجاوزها الزمن ، ولم تعد صالحة لمواجهة التطورات والتحولات التي شهدها الواقع .

٣ ـ يغيب عن الحزب البعد القومي بشكل مطلق ، فضلا عن غياب البعد الديني لانه حزب علماني ، وغياب البعد الاجتماعي لأنه لا يهتم بمصلحة القوى والطبقات الشعبية .

التيار الديني : ابرز جوانب القوى في هذا التيار انه يحمل رسالة السماء شعارا له مما يعدم امكانية وجود من يتصادم معه ، لان التدين ميزة اساسية من ميزات الشعب في مصر . فعندما يأتيك من يقول أنه يريد تطبيق شريعة الله لا تستطيع مناقشته في ذلك بالمقابل يمكن ان تناقش أية نظرية أخرى ماركسية ناصرية او غيرها ، انما لا تناقش من يدعو الى تطبيق الشريعة ، والى تطبيق حكم الله حتى ولو كانت كلمات حق يراد بها باطل .

لكنك عندما تتجاوز ذلك وتطالبه بان يضع لك نظاما اقتصاديا او نظاما دستوريا او نظاما اقضائيا او ...الخ ، فانه لا يملك الا ان يقول القرآن دستورنا ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون .

رغم ان الله سبحانه وتعالى ترك ساحة كبيرة جداً لاعمال العقل البشري واستنباط الحلول المناسبة .

اما عوامل الضعف في هذا التيار فاخطرها :

١ ـ التفتت والتشرذم ، حيث انه هناك اكثر من عشرين حركة دينية متناحرة حتى ان العداوة بين البعض منها تصل الى اكثر من العداء لمن هم خارجها ، وخاصة وانهم يؤمنون بحديث لم تثبت صحته

يقول « ستنتهي امتي في آخر الزمان الى ثلاث وسبعين فرقة ، اثنان وسبعون منها في النار وواحدة فقط الناجية » بحيث ان كل فرقة تتصور انها الناجية وان الباقي في النار . اذكر هنا اننا عندما كنا سوية في السجن في سبتمبر ١٩٨١ مع الجماعات الاسلامية كان الآذان يمتد طوال الليل لان كل فرقة تؤذن لوحدها ولا تلتزم بآذان الفرقة الأخرى .

هذا التشتت طبيعي لانهم يتفقون على العموميات لكن عند الدخول في التفاصيل يختلفون اختلافا شديدا ، وكما يقول المثل الالماني « في التفاصيل يدخل الشيطان » !

٢ ـ الغياب الكامل للبعد القومي عن طروحاتهم الفكرية والتنظيمية ، ليس هذا فحسب ، بَل وعدائهم الشديد للقومية ولكل من يدعو اليها او يلتزم بها ، لانهم يؤمنون بالدار الاسلامية ، والخلافة الاسلامية بشكل يضع الاسلام على غير وجه حق في موقع مناهض للقومية . اضف الى ذلك غياب البعد الاجتماعي حيث ليس لديهم اي برنامج اقتصادي اجتماعي يتناول المشكلات الحياتية التي يعانيها المواطن ..

٣ ـ تشبثهم الى حد التعصب بآرائهم وطروحاتهم ، وفرز الناس وفق التزامها او عدم التزامها بهذه الطروحات الى درجة ان الكثير منهم يحكم بالكفر على كل من هو خارج جماعته .

٤ ـ كل ذلك يؤدي الى غياب تعاطف الشارع المصري معهم بل ان العلاقة بينهم وبين الشارع تتسم بالعداء المتبادل مما افقدهم القدرة على اقتحام عمق الشعب العربي في مصر من عمال وفلاحين ، وليس غريبا انه قبض على الف وخمسمئة منهم في ليلة واحدة ولم يكن بينهم اكثر من عشرين عامل وفلاح والباقي كلهم من طلبة الكليات .

اما اهم نقاط القوة عند هذا التيار فتكمن في ان التعميم يسيطر على كل طروحاتهم ، بحيث انهم يتمسكون بعموميات الدين والشريعة التي يتفق عليها المسلمون عموماً ، كما تكمن في ان انتشارهم موجود في صفوف طلبة الجامعات وخاصة الكليات العلمية مما يجعلهم شريحة طلابية متميزة خاصة ان الكليات العلمية لا يستطيع الدخول اليها الا ذوي المعدلات المرتفعة ، فضلا عن ان للجامعات ولطلبتها في الدول المتخلفة او النامية تأثير كبير في الحركة السياسية ، بعكس الدول المتقدمة ، وقبل كل ذلك ان اعضاء هذه الجامعات يتميزون بروح فدائية عالية تمنحهم الاستعداد لاقتحام الاهوال نتيجة ايمانهم الشديد ، فوراء هذه الدول الفانية جنة عرضها السموات والارض .

التيار الماركسي : أهم جوانب القوة في هذا التيار ، ان كوادره مدربة تدريباً جيداً وواعية بطروحات المنهج والنظرية الماركسية ، ولها قدرة عالية على التعبير والحركة . ومن جوانب القوة ايضا في هذا التيار درجة عالية من الانتهازية ، وقدرة عالية على الدخول في التحالفات ، بحيث انهم مستعدون للدخول في اي تحالف مع اي قوة في اي وقت . اما جوانب الضعف فيه فتكمن في تعددهم التنظيمي وتعدد تحليلاتهم وطروحاتهم الى درجة التنافر والصراع الذي كثيراً ما يكون اكثر عنفا من الصراع ضد الطبقة الرجعية كما تكمن في اتهامهم بالالحاد والكفر كما سبق وقلت .

رغم محاولاتهم التعبير عن الطبقة العاملة فانهم لا يمثلون هذه الطبقة ، وثمة فارق كبير بين التعبير والتمثيل ، كذلك رغم رفعهم لبعض الشعارات القومية لتكتيك يمارسونه للتقرب من الناصرية ، فان البعد القومي يغيب عنهم فكرياً وتنظيمياً .

التيار الناصري :

هذا التيار يمثل الاغلبية الساحقة من الشارع المصري ، باعتراف كل القوى السياسية في مصر بل وكل قوى الاعداء في الداخل والخارج بحيث انه ينتشر في صفوف الطبقات والقوى الاساسية ، وخاصة داخل الطبقة العاملة ، وداخل الفلاحين اي في صفوف اصحاب المصلحة الحقيقية في التغيير والثورة . طبعا لا أنفي الوجود الماركسي او الديني او غيره بين العمال والفلاحين انما هذا الوجود لايرقى في قوته وانتشاره على الاطلاق الى مستوى الانتشار الناصري . هذا التيار يتميز بابعاده الكاملة المنسقة المتنامية ، ويمتاز بها على التيارات الاخرى .

فالبعد الديني نشترك فيه مع التيار الديني ، ولكن بفهم اكمل لجوهر الاسلام فنحن نتفق معه تماما في العبادات والعقائد ، اما بالنسبة لعلاقة الانسان بالانسان الاقتصادية والاجتماعية ، الى غير ذلك ، فنحن الذين نستخرج كنائز هذا الدين وجواهره ولا تتصادم معه ، في البعدين اللذين نتفرد بهما :

١ ـ البعد القومي

٢ ـ البعد الاجتماعي وفق المنهج العلمي

حيث نملك ابعادهما المتكاملة ، وفي هذا عنصر قوة عظيم ، أما عنصر القوة الأخر ؛ فهو وجدان عبدالناصر الذي ما زال تأثيره حياً في الجماهير ، وهذا شيء كنت أخشى منه خشية كبيرة ، وأنا في السجن ، فالجيل الجديد الذي لم يعش عصر عبدالناصر ، والذي نشأ في عهد السادات هو الذي يملأ الساحة السياسية ، أنه جيل صلب وممتاز ومليء بالحماس ، ويشكل أكثر من ٧٥٪ من جمهرة الشارع المصري ، وعنصر القوة فيه اننا لم نكن نحرث في البحر ، حتى تنظيمياً ، فما تزال عناصر الاتحاد الاشتراكي بالآلاف داخل لجان الاتحاد الاشتراكي ما زالوا على اتصالهم وعلى بقائهم ، وعلى انتظارهم للتنظيم الطليعي ومنظمة الشباب ، اللذان قاما بتغذية الحركة السياسية في مصر ، وحتى في الوطن العربي .

فبعد غياب عبدالناصر ، أخذت الناس تقارن بشكل حاد وأساسي بين ما كانت فيه وما أصبحت عليه ، فاختارت الانحياز بالوجدان ، بالعاطفة ، بالعقل ، بالمشاهدة وبالتجربة الى ما كانت عليه ، وهذه نتيجة إيجابية أساسية ، وعنصر قوة مهم ، أما عنصر الضعف فهو ان هذا الانحياز ما يزال تيارا لم ينظم بعد ، والتيار رغم وجوده الساحق داخل الشارع المصري ، انما بغير تنظيم يجعل مردوده ومعطياته النهائية قليلة للغاية ، وهذه نقطة ضعف خطيرة .

وحتى يقوم تنظيم لابد أن نبحث كيف يقوم هذا التنظيم ، تنظيم سري ، أم تنظيم علني ؟

ففي الحالة الأولى أمراض السرية خطيرة حيث حكم الجماهير غير موجود لسرية التنظيم ، والاختراق فيه واضح ووارد ، والانشقاقات تبقى مسألة طبيعية فيه اضافة إلى أن تأثيره يبقى محدود ، فلا يمكن أن تنشيء تنظيماً سرياً على امتداد الساحة المصرية كلها بـ ٧٥٪ من الشعب المصري أي حوالي ٤٠ مليون يدينون بالناصرية عندئذ يكون التنظيم السري غريب ، لأن الهدف الأساسي للتنظيم السري أن يخلق تياراً ، وبما ان التيار موجود فان سرية التنظيم اختياراً لا مبرر له .

تبقى الحالة الثانية ، التنظيم العلني ، وهو المحور والأمل والحلم الذي لابد أن يتحقق ، صحيح ان أمامه عقبات قد تكون غاية في الصعوبة ، غير ان هدف هذا التنظيم هو مواجهة الامبريالية الاميركية والصهيونية والرجعية ، ومتابعة الصراع معها حتى ينتهي هذا العدو الثلاثي ، وخاصة محو الكيان الصهيوني تماما وتحرير الأرض العربية كلها ولو بعد مئة سنة أو أكثر ، فالصليبيين بقوا في بلادنا ١٩٤ سنة ، وتدرك الصهيونية والامبريالية الاميركية هذه الحقيقة كما تعرف تماما ان اخطر المخاطر

على وجودهما على الأرض العربية هو انشاء تنظيم ناصري قوي . وحتى نستطيع أن نواجه ذلك لابد أن نهيء له ما استطعنا من قوة .

ان من أهم عناصر ضعف التيار الناصري اذن هو غياب التنظيم ، لو نشأ هذا التنظيم ، وهذا ما نسعى اليه ، بأبعاده الممتدة على الساحة العربية لكان أخطر ما تواجهه القوى الثلاث المهيمنة على الوطن العربي ، ان تحارب عبدالناصر وهو ميت بقوة أشد مما وهو حي ، لأن قيام شعب يتبنى مقولات عبدالناصر وتراثه ونظريته بقيادة تنظيم قوي ، يكون فعلا أكثر خطرا من عبدالناصر نفسه على مصالح ووجود تلك القوى المهيمنة ، ان قيام مثل هذا التنظيم سيشكل بداية مرحلة جديدة مختلفة نوعيا ، بحيث ان الثورة ستقوم مرة أخرى وبشكل أقوى وارقى مما سبق ، حيث يزلزل الأرض تحت أقدام القوى الرجعية وقوى الردة ليس في الوطن العربي فحسب بل سيؤثر في القوى الثورية على امتداد العالم الثالث كله .

ان اميركا والصهيونية والرجعية ، يدركن هذا الأمر تماما لذا فانهن يقفن ويحاربن حربا مستميتة قيام مثل هذا التنظيم مستخدمات كل الوسائل والأساليب لمنع قيامه ، لذا علينا أن نعرف اعداءنا ، وان نعرف التحديات التي نواجهها ، وبالتالي علينا ان نبتكر ونبدع الأساليب والوسائل والأسباب التي نستطيع بها أن نتخطى هذه العقبات وننشأ التنظيم الناصري الشعبي القومي الذي يجب أن يتشكل من القوى الحية المتحركة والكوادر الملتزمة التي تملك أسلحة النضال وأسلحة الرد والحسم في كل وقت ، والذي ستلتف حوله الجماهير العربية في كل أجزاء الوطن العربي كبداية حقيقية لزحف الأمة العربية نحو تحقيق غاياتها .

في ختام حديثي اود ان اعرض مرة أقوال بعض الغربيين في عبدالناصر : إذ يقول لاكوتير متحدثا عن جنازة عبدالناصر « ان هذه الجموع الغفيرة في تدافعها الهائل نحو الجثمان لم تكن تشارك في تشييع الجثمان الى مثواه الأخير ، لكنها في الحقيقة تسعى في تدافعها المتلاظم للاتصال بجمال عبدالناصر الذي كانت صورته هي التجسيد المطلق لكينونتها ذاتها » . ويقول لينل : « ان قوة منطق عبدالناصر مستمرة من قوة منطق التاريخ » . ويقول جون جورنر : « ان مصدر قوة عبدالناصر الرئيس هو انه يرمز إلى تحرير وتقدم الجماهير ، فلقد أعطى شعبه ما لم يكن يملكه الا وهو الأمل » .

شكراً لكم وأنا على استعداد لأي استفسار ولأي ايضاح أو حوار بيني وبينكم .

المداخلات والاسئلة

مداخلة اولى

المداخلة هي عبارة عن ثلاث نقاط .

ـ النقطة الأولى في مجال البعد الديني .

ـ النقطة الثانية في مجال البعد الاجتماعي .

ـ النقطة الثالثة في موضوع الحرية والديمقراطية .

الحقيقة ان ما أضيفه ليس رأياً مضاداً أو معدّلاً وإنما رأياً مضيفاً .

١) بالنسبة للبعد الديني : فالديانات وخاصة الاسلام لها جانبان :

الجانب الأول ثابت لا يتغير تصدّق عليه مقولة ـ أن الدين صالح لكل زمان ومكان ـ وقد أشار الأخ فريد إلى ذلك وهو موضوع العقيدة والعبادات ، وهذا الجانب لا يمكن المعارضة فيه أو تحويره لأنه جوهر الدين أما الجانب الآخر وهو جانب المعاملات ويشتمل على عدة نقاط سواء في الجانب الاجتماعي أو في الممارسة السياسية . إن ما أضيفه هنا يتعلق بالممارسة السياسية ، فالقوى أو التيارات الدينية تبني فلسفتها على مقولة أساسية وهي ـ ان الحاكمية للّه ـ ، بينما نحن نعتقد ونرى أن الحاكمية للناس وأن مصدر السلطة هو الشعب ، وهناك طبعاً عدة دراسات وهناك باحثون عديدون ناقشوا هذه المسألة بإسهاب وأجادوا في ذلك وعلى رأسهم الدكتور محمد عمارة ، وأنا أضيف هذه الملاحظة من أجل أن يكتمل البحث ، فالتيارات الدينية في طرحها الحاكمية للّه والسلطة كلها مستمدة من اللّه ، وان أي نظام هو غير شرعي استناداً لهذه المقولة التي يرجعون تفسيرها إلى الآيات القرآنية القائلة : « من لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون » . ـ سورة المائدة ـ .

« ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الظالمون » .

« ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من اللّه حكماً لقوم يوقنون ؟ » .

وطبعاً فهذه آيات مهمّة عندما يسمعها الانسان لأول مرة يسلّم بها . ولكن عند تمحيص هذا الأمر فإننا نرى أن المقصود بها غير الذي تطرحه الجماعات الدينية ، وإلّا فكيف يمكننا أن نوازن بين مجموع الآيات القرآنية أو نقارن بينها وبين آيات أخرى تطرح مثلا « وشاورهم في الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ؟ وكيف نقارب بين هذا الأمر وبين ثابت الحديث النبوي الذي رواه مسلم وابن ماجه وابن حنبل عن طلحة بن عبيد اللّه والسيدة عائشة وأنس بن مالك إلى آخره عن قوله صلعم « ما كان من أمر دينكم فإليّ مرجعه وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به » فهذا تحديد واضح قاطع وشامل .

أما الخلل الظاهر في تفسير الجماعات الدينية فيعود إلى أمرين :

الأمر الأول ، هو عدم مراعاة السياق الذي وردت فيه الآيات القرآنية .

والأمر الثاني ، هو عدم معرفة ؛ أو عدم الرجوع إلى أسباب النزول ، عند الاستشهاد بها وهذا شيء مهم .

ومن ثم فإن بناء الأحكام عليها يؤدي إلى نتيجة مغايرة .

فمثلا تقول الآية واحد وعشرون من سورة المائدة نفسها « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب

الله » ويعني بها بني اسرائيل وفلسطين ، طبعاً هذا معناه تبرير للحركة الصهيونية وإعطاؤها شرعية الوجود في فلسطين ، بينما لو رجعنا إلى شروحات القرآن الكريم فإننا نجد أن الآية تسرد واقعة تاريخية قبل ٢٠٠٠ سنة ، عندما كانت تخاطب بني اسرائيل في ذلك الوقت ، ولذلك فإن معرفة اسباب النزول والظروف التاريخية التي أدت لذلك مهم جداً في تفسير الآية أو الحديث وعلى ذلك يُجمع كل مفسري القرآن الكريم .

كان هذا الأمر الأول ، اما الأمر الثاني وهو ان التيارات الدينية عندما تقول بحكم الله يظنون ان القرآن الكريم والفكر السياسي للاسلام يستخدم الحكم للدلالة على النظام السياسي في الحكم بالمفهوم الحاضر .

والحقيقة ان هذا المفهوم كان له دلالة أخرى ، فلو رجعنا مثلاً للاستخدامات القرآنية نجد كلمة الحكم قد وردت ضمن معنيين :

المعنى الأول : بمعنى القضاء والفصل بين المنازعات ، بمعنى الحكم والتحكيم .

كما ورد في الآية الكريمة « ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » وفي العصر الحاضر هنالك تفسيران للمصطلح : التحكيم ومعنى نظام الحكم وكل ما ورد في القرآن الكريم في موضوع الحكم كان يقصد به إما المعنى الأول وإما المعنى الثاني وهو معنى الفقه والعلم ، فمثلا يقول القرآن في وصف النبي يحيى « وأتيناه الحكم صبيا » وبالطبع لم يكن المقصود اعطاؤه الحكم بمعنى السلطة السياسية وهو صبي فهذا لا يقبله العقل ، وإنما أعطيناه الفقه والعلم والحكمة صبيا ، وكذلك يدعو النبي ابراهيم ربه فيقول : « ربي هب لي حكماً وألحقني بالصالحين » وطبعاً ليس المعنى أعطني السلطة أن أحكم البلد إنما المعنى أعطني العلم والحكمة ... الخ .

والمصطلح المستخدم الآن في الأدب السياسي للاسلام وفي القرآن الكريم هو مصطلح الأمر ، ومن كلمة الأمر اشتقت الامارة واشتقت الأمير الذي هو على رأس السلطة السياسية .

فالأمر كلمة لها اتصال بالائتمار وبالتشاور التي هي في الحقيقة فلسفة الحكم في الاسلام ومن هنا تقول الآية « وشاورهم بالأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ... إذن موضوع الحكم بالاسلام بالمعنى الحديث أو المصطلح القديم هو الأمر وهذا واضح في القرآن من خلال الآيات وواضح أيضاً في ثابت الحديث النبوي ، لذلك فنحن نقول كناصريين وكقوى الثورة العربية ، القوى الرئيسية الوحيدة التي فهمت الفهم الصحيح الجزء الدنيوي من الدين الاسلامي ووضعته في المكان المناسب وانسجمت بذلك فعلا مع التراث ومع معطيات العصر .

كانت هذه النقطة الأولى في مجال البعد الديني التي أحببت ان أضيفها .

٢) بالنسبة لموضوع الاشتراكية والبعد الاجتماعي فإن الاستاذ فريد عبدالكريم قد طرح الملكية ووسائل الانتاج في المجتمع ، وأنا أظن ان الناصرية تطرح السيطرة الكاملة للشعب على وسائل الانتاج ، وهناك طبعاً فرق بين السيطرة وبين الملكية ، فالسيطرة تعني ملكية وسائل الانتاج الرئيسية مضافاً إليها سيطرة الشعب ومراقبته للأشكال الأخرى من الملكية ، مثل الملكية التعاونية أو الملكية الفردية الصغيرة ، كما أن هناك فرقا بين الملكية الانتاجية وبين أنواع أخرى من الملكية كالملكية الاستهلاكية أو الملكية الفردية المعيشية ، فالملكية الانتاجية التي فيها علاقة إنتاج بين رب عمل وعامل دائما فيها علاقة استغلال ، تتمثل في اقتطاع فائض القيمة الموجودة لدى العامل لصالح الرأسمالي أو

رب العمل ، وهذا الاستغلال قد تقبله في المرحلة الأولى من التطبيق الاشتراكي لكن في النهاية يجب أن يزول هذا الشكل من الاستغلال .

إذن الملكية الانتاجية للحياة يجب أن تعود إلى ملكية الشعب العامة .

أما الملكية الاستهلاكية هي حق مصون وهي حق أساسي من حقوق الانسان ، كملكية بيت أو ملكية وسيلة نقل ...

٣) بالنسبة للقضية الثالثة : وهو موضوع البعد التحرري والديمقراطي ، يجب أن أشير أن هناك أزمة ، وكما تحدث الأخ فريد عبد الكريم أن الماركسية تعاني هذه الأزمة ، وأبرز الأمثلة التي تعطينا أبعد الدلالات وتلخصها هي أحداث بولندا التي يلعب فيها البعد القومي مع البعد الديني البعد التحرري .

إذن يجب أن نستوعب طبيعة أحداث العصر التي تجري وتزيدنا متانة في قناعتنا بنظريتنا وبفكرنا الثوري العظيم وشكراً لكم .

الأستاذ فريد عبد الكريم :

بالطبع عندما عرضت الأبعاد لم أعرضها بالتفصيل فكل منها يحتاج إلى دراسة طويلة ومتأنية ، علمية وواسعة ، إنما عرضت الملامح الرئيسية فقط .

بالنسبة للملاحظة الأولى حول الحاكمية لله ، هذه دعوة قامت أيام الامام علي بن أبي طالب « الا ان الحكم لله » فقال « كلمة حق يراد بها باطل » .

وفي الحقيقة هم ينطلقون من منطلق خاطىء ، حيث يتصورون ان الدين الاسلامي أو القرآن والسنة لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا وحسمها ، وهذا غير صحيح ، لأن سرّ خلود الدين الاسلامي في الزمان وعبر المكان أنه حدد العقائد والعبادات والتوجهات الرئيسية في المعاملات ، ونحن مسلّمون بها ، وفيما عدا ذلك تركه للعقل البشري .

نحن كناصريين نسلم بالآيات المحكمة جميعاً ... ، ان القاتل يُقتل وأن الزاني يرجم إلى غير ذلك ، إنما الحياة ليست قتلا وليست زنى وليست حدوداً ..

الحدود محصورة والمسائل الواردة في الدين الاسلامي محدودة ، والدين الاسلامي جاء كي يواكب العصور وكل الأزمان حتى تفنى الأرض وما عليها .

كانت الديانات تأتي عندما ينتشر الفساد فيأتي نبيّ جديد برسالة جديدة ، وثورة إنسانية جديدة تمحو هذا الفساد ، وتبدأ الكرّة من جديد وأيضاً يتغيّر المجتمع وتختلف عاداته وينحرف إلى حد كبير وتأتي رسالة جديدة ، بينما لما جاء الدين الاسلامي ، جاء كآخر الرسالات ، وكآخر الأديان ، وقد ثبتت صحة هذا لأنه لم يأت أي دين من بعده ، لأنه ترك مساحة ضخمة للعقل البشري كي يتدبر أموره ، فكل ما جاء في الدين الاسلامي توجّهات وقضايا كليّة ، فمثلا :

« وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » فالقضية الأساسية هو ان نحكم بالعدل إنما كيف نحكم بالعدل ؟ من الذي يحكم بالعدل ؟ هل هي محكمة من درجة واحدة أو من درجتين أو محكمة نقد أو محكمة تمييز ؟ هل هو قاض واحد أو قاضيان أو ثلاثة قضاة أيكون ذلك بالتعيين أو بالانتخاب أو بالشورى هذه مسائل متروكة للعقل البشري .

إن جوهر المسألة وهو الحكم بالعدل واحد إنما المعالجة ترتبط بظروف المجتمعات وتطور الأزمان وإلا نكون قد أسأنا إلى الدين الاسلامي إساءة بالغة ، ففي عصرنا الحاضر لا نستطيع إحضار الخليفة كي يحكم بين الناس لأن هناك آلاف القضايا في اليوم .. إذن فالسؤال أصبح كيف نشكل النظام القضائي في هذا الظرف المحدد ؟. فمثلا في النظام الاقتصادي يقال « ولا تغلل يدك إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » . فهذه عوامل كلية إنما كيف ينشأ النظام الاقتصادي ؟ هل بإنشاء مصارف أم تمويل أم استغلال هذا كله متروك للعقل البشري .

فما كان ينم منذ ألف سنة غير صالح الآن ، أما الجوهر فلابد أن نحافظ عليه ، فالدين الاسلامي دين جوهر ، أما الأنظمة فهي تشكل أسلوب المعالجة لكي نصل إلى هذا الجوهر ، فكلمة الحاكمية لله نحن نسلم بها كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله . لما أرسل النبي صلعم معاذ بن جبل قاضياً على اليمن ، قال له « بماذا تحكم يا معاذ ؟ قال « إذا عرضت عليّ قضية أحكم بها بما جاء في كتاب الله » ، قال له : « وإذا لم تجد ؟ » ، - إذن كتاب الله لم يأت بكل صغيرة وكبيرة !!. .

قال : « أحكم بسنة رسول الله » ، قال : « وإذا لم تجد ؟ » . - إذن سنة رسول الله لم تأت بحل كل مشكلة متغيرة منظورة - قال : « أجتهد رأيي ولا آلو » - أي لا أتوقف - قال النبي صلعم : « الحمد لله الذي أرشد مندوب رسول الله إلى ما يحبه الله ويرضاه » .

إذن علينا أن نحتفظ بالجوهر ونجتهد بالمعالجة ، وليس المطلوب من أي ملك أو من أي رئيس جمهورية أن يمشي بجلابية فيها مئة رقعة وينام تحت الشجرة إنما المطلوب الحفاظ على الجوهر وهو هذا الزهد ، فالتركيبة النفسية للانسان العربي مكونة في أغلبها من دين ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن نفهم ديننا ونعالج قضايانا كما ينبغي دون اصطدام مع الدين .

النقطة الثانية في البعد الاجتماعي هي مسألة الملكية ، فعندما أقول بملكية الشعب أو الأمة لوسائل الانتاج الرئيسية معنى ذلك بقاء الملكية الخاصة ، أعني الأرض والآلات والمال ، وقوة العمل ، فوسائل الانتاج هي قوة عمل ، لذلك يجب أن يملكها العامل ، وعندما يملك الشعب وسائل الانتاج الرئيسية ، يسيطر على وسائل الانتاج غير الرئيسية ، وكلمات القائد واضحة بأن القطاع العام هو القطاع القائد والرائد ، وأن تصرف كل فرد من أفراد الأمة مخطط تخطيطاً مركزياً ، لذلك فإن أي صاحب رأسمال من القطاع الخاص ليس حرّاً في استثماره في مصنع خمور مثلا أو في مسبح أو في مرقص ... .

اما الملاحظة الثالثة بالنسبة لأزمة الديمقراطية ، أولا وقبل كل شيء فإن أزمة الديمقراطية أزمة عالمية وليس فقط في النظام الاشتراكي الذي بالطبع لم يصل إلى حل لها بعد ، إنما أزمة الديمقراطية في النظام الرأسمالي هي أخطر لأن هناك قوة متحكمة وقابضة ، فلا تظنوا أنه في أمريكا هناك ديمقراطية حقيقية ، صحيح هناك حرية تعبير إنما الذي يسيّر الأمور هي مجموعة من الناس أصحاب المصالح الحقيقية ، والجماهير ليس لها دور أو دخل فيها ، وقضية الديمقراطية ما تزال معروضة برمتها في كافة الأنظمة الديمقراطية .

سؤال :

أولاً : طرح الأخ المحاضر في الصباح أنه هناك أكثر من ماركسية في الوقت الحاضر ، والمعروف انه هناك ماركس واحد ، فهل يعني الأخ المحاضر أن منظري الماركسية الجدد هم المعنيين بالأمر ؟

ثانياً : إننا نعرف جميعاً أن تجربة التحول الاشتراكي التي تمت في مصر كانت تستند إلى نظرية تحالف قوى الشعب العامل ، ولكن بعد رذة مايو ، إنحرفت إحدى الشرائح الاجتماعية المتمثلة بالرأسمالية غير المستغلة ، انحرفت مع انحراف السادات ، وبدت آثارها واضحة بعد الانفتاح الاقتصادي ، حين بدأت تفتك بالواقع المصري . هناك مسألة أخرى فالأخ المحاضر من خلال عرضه لأبعاد الناصرية ، ذكر أربعة أبعاد : البعد القومي التحرري الديني والاجتماعي ، لا أعرف إن كان الأخ المحاضر من خلال الحديث قد أغفل الجانب الحضاري للناصرية ، باعتبار أن الناصرية مشروع حضاري مستقبلي للأمة العربية التي ما زالت تعيش مرحلة تصادم حضاري مع الحضارة الغربية وطبعاً هناك بعد آخر وهو البعد الدولي او الانساني .

جواب :

بالنسبة للملاحظة الأولى - عن الماركسية - إن ماركس لم يقم إلا بتحليل النظام الرأسمالي وإنتهى إلى مقولات أساسية ، بأن صلب القوى التي ستقوم بالتطبيق الشيوعي هي قوى العمال ، وأنه لا يمكن أن تقوم هذه القوى بعملية التغيير إلا عندما يصل النظام الرأسمالي إلى أوضاع معينة ، وقد ثبت عدم صحة كثير من المقولات التي عرضها ، واستطاع آخرون أن يكملوا هذا ، فوضع ماوتسي تونغ قوة الفلاحين بدلا عن قوة العمال وألقى عليهم التبعة الأساسية في الثورة ، وهذا تجديد بالنظرية الماركسية ، واستطاع لينين أن يغيّر مقولات كثيرة جداً ، فأضاف أشياء هامة وأسقط أشياء كثيرة ، واستطاعت الأحزاب الشيوعية الأوروبية أن تدخل الديمقراطية الغربية تحت اطار ماركسي ، فمثلا الحزب الشيوعي الفرنسي يعلن من الآن انه لن يخرج من الحلف الاطلسي ، وكثير من المفكرين الماركسيين قدموا تحليلات وتفسيرات مختلفة للماركسية ، فجارودي كان له وجهة نظر وردنسون أيضاً وغيرهم ...

وبالتالي هناك أحزاب ماركسية تستند إلى هذه التحليلات التي تختلف مع المقولات الماركسية الأصلية ، وهذا يعني أن الماركسية أصبحت ماركسيات كثيرة . ومن المؤكد أن ماركسية القرن العشرين بالاضافات الكثيرة التي أضافها لينين والتي أضافها ماوتسي تونغ والتي أضافتها الأحزاب الشيوعية الأوروبية ، الايطالي والفرنسي والاسباني ، جعلت هناك خلافاً جوهرياً في التحليلات الأساسية في الماركسية ، وهذا ما عنيته ، وهذا حديث طويل جداً ، فالاختلاف في التفسير يترتب عليه اختلاف في القوى السياسية الموجودة وليس غريباً أن تجد في كل دولة الآن وخاصة الدول النامية أحزاباً ماركسية منتمية إلى اتجاهات ماركسية مختلفة ، ففي لبنان مثلا تجد حزبا شيوعياً مرتبطاً بمقولات الايديولوجية السوفياتية ، وآخر مرتبط بالمقولات الأساسية التي طرحها ماوتسي تونغ وفي مصر أيضا نجد أحزاباً مرتبطة بالتيارات المتشددة الجامدة وأخرى بالتيارات المتطورة ، وأصبح هناك الجامدين والمنحرفين ، وهذه حالة شائعة في الحركة الماركسية على مستوى العالم ، ففي ألبانا ، حزبها الشيوعي يرفض مقولات كثيرة ، والحزب الشيوعي الايطالي يرفض مقولات أكثر ، والحزب الشيوعي المغربي يعتبر ارتباطه الوطني أقوى من ارتباطه بالشغيلة والأممية ، والقومية دخلت كعنصر أساسي

في الحزب الشيوعي اللينيني ، فأصبحت القومية بديلا عن الأممية ، وهناك مقولات كثيرة وتحتاج إلى جلسات طويلة . بالنسبة للسؤال الثاني ، حول الرأسمالية الوطنية وتحالف قوى الشعب العامل ، نحن نؤمن بتحالف قوى الشعب اعامل كمقولة رئيسية ، ونؤمن بتنظيم جماهيري واحد يجسد هذا التحالف المشكل من القوى الطامحة بالتغيير ، وصاحبة المصلحة به ، وهذا الموقف يرتبط بوجود الثورة في السلطة ، ولكن عندما تتغير الظروف وتسيطر القوى الرجعية على السلطة لابد أن يتغير الموقف أيضاً . إن التطورات الجديدة في الوطن العربي تجعل من مصلحة الناصرية أن تؤيد وجود أحزاب متعددة وليس حزب واحد ، يشمل كل القوى الوطنية ، ومن مصلحتنا أيضا وجود تحالف وطني بين هذه القوى ، لاسقاط القوى الرجعية والاستيلاء على السلطة لمصلحة الجماهير العربية وهذه مقولة مختلفة عن مقولة التنظيم الجماهيري الواحد ، تنظيم تحالف قوى الشعب العاملة .

لكن هذه المقولة ، مقولة الأحزاب المتعددة ، لا تنفي مقولة تحالف قوى الشعب العاملة، أي لا تنفي ولا تلغي أن القوى القادرة على التغيير وصاحبة المصلحة فيه هي قوى وطبقات هذا التحالف : العمال ، الفلاحون ، المثقفون ، الثوريون والجنود ، والرأسمالية الوطنية غير المستغلّة .

والحقيقة أن هناك داخل الناصريين أكثر من وجهة نظر حول الرأسمالية الوطنية ، وذلك نتيجة للظروف التي تعاقبت بعد غياب عبدالناصر .

لكن يجب ألا ننسى وألا ينسى أي ناصري أن عبدالناصر كان وضع الرأسمالية الوطنية داخل قوى تحالف الشعب العام ، وضعها وحدد دورها بشرطين ، الأول أن تكون منتجة وغير مستغلّة ، والثاني أن تكون خاضعة لرقابة ومحاسبة الشعب .

وهكذا فإذا تحولت نحو الاستغلال تُضرب وإذا تميّزت بما تملك وليس بما تعمل وبما تؤديه للمجتمع تُضرب أيضاً .

ومن ناحية أخرى فإن تعبير الرأسمالية الوطنية يتميز بأنه حركي وغير ثابت ، وحركيتّه تكمن في خضوعه للشروط التي ذكرتها ومن هنا كان التدرج مثلاً في تحديد الحد الأعلى لملكية الأرض ، في البداية كان مئة فدّان ولكن بعد فترة من الزمن أصبح هذا الحد مصدراً للاستغلال والامتياز ، فصدر القانون الذي ينص على خمسين فدّان .. وهكذا نجد أن مضمون تعبير الرأسمالية الوطنية كان يتغيّر من وقت لآخر ، وذلك لمصلحة بقية قوى التحالف .

وهذه إحدى مصادر خصوبة الناصرية وفكرها المستنير ، حيث لا نحكم على طبقة بكاملها حكماً مسبقاً قاطعاً ، وخاصة وأن هذه الطبقة في مرحلة التحرر الوطني ، وهذه المراحل الأولى من التحول الاشتراكي ، لا تتناقض مصالحها مع بقية قوى التحالف ، وهذه إحدى نقاط الخلاف مع الماركسية ، تضاف إلى الموقف من الدين ، ومن ديكتاتورية الطبقة العاملة ، ومن كيفية تذويب الفوارق بين الطبقات ، ومن القومية ... الخ .

واليوم فإنه لمن الغباء السياسي أن نرفض ضم الرأسمالية الوطنية إلى قوى التغيير ، وخاصة في مصر ، لأن مصلحتها الآن تكمن في اسقاط التحالف الرجعي ، تحالف السماسرة والطفيليين والرأسمالية المستغلة التابعة للرأسمالية العالمية ، نتيجة لأنها من القوى المتضررة من سيطرة هذا التحالف وإذا لم نسع لضمها إلى قوى التغيير فإننا بذلك ندفعها دفعاً للارتباط بالتحالف الرجعي المسيطر ، طبعاً مع إدراك الفارق في مضمون تعبير الرأسمالية الوطنية بين الحاضر وبين الماضي .

أما عن الابعاد الاخرى التي أضفتها ، كالمشروع الحضاري والصراع الحضاري فأنا أوافق على أن الجانب الحضاري هو بعد آخر من أبعاد الناصرية ... لكن لنتذكر أنني وللأسف لم أكن قد حضّرت الدراسة كتابة لأسباب موضوعية ، وبالتالي فقد حاولت شفهياً ان أتناول الأبعاد والملامح الأساسية وبشكل مختصر دون الدخول بالتفاصيل .

سؤال :

هل من الممكن تحقيق الثورة الشاملة في ظل الظروف الراهنة في الوطن العربي ، وبشكل خاص في مصر ، عن طريق الأسلوب الديمقراطي ، أي عبر الانتخابات ؟
لقد علّمنا القائد المعلّم أن الثورة هي علم تغيير المجتمع ، فهل من الممكن أن يتم هذا التغيير الجذري بالاقتناع وبدون استخدام القوة والعنف ؟
وبشكل آخر هل يمكن مثلا اقناع الانفتاحيين في مصر بالتنازل عن مكاسبهم وامتيازاتهم ؟.
وهل يمكن إلغاء كامب ديفيد بالاقناع ؟. وهل يمكن إقناع الأقليميين برؤية العمل القومي الصحيح ؟
أنا لا أستطيع أن أفهم ولا أستطيع أن أقنع الناس بأنه من الممكن الاستيلاء على السلطة عبر الدخول في اطار النظام الحالي في مصر ، من خلال حزب أو تنظيم سياسي ، يطرح الأسلوب الديمقراطي كشعار وهو يعي جيداً أنه لا سبيل للتغيير إلا بالعنف !

جواب :

نحن عندما قلنا ببناء التنظيم السياسي القومي لا نعني إطلاقاً أننا بالرضى والاقتناع سنحقق ما نريد ، لأن من يملك ويستغل لا يتنازل عما يملكه بالرضى والاقتناع ، وهنا تكمن ضرورة استخدام العنف الثوري ... ولقد استخدمته الثورة لكن بشكل قليل جداً وأقل مما كان ينبغي ، وعندما أقول تنظيم ثوري ، معنى ذلك أن الثورة هي الأسلوب الوحيد للتغيير ، لكن حتى نقوم بالثورة لابد من حشد طاقات الجماهير الكادحة وهي الأغلبية الساحقة ولابد من تنظيمها لكي تستطيع مواجهة الأقلية الرجعية المتحكمة بالسلطة ، فإذا تخلت هذه الأقلية عن السلطة سلمياً وسلمتها للجماهير أي للأغلبية فلا ضرورة لاستخدام العنف ، لكنها لن تفعل ذلك ، وبالتالي لابد من الثورة الشاملة ، المعتمدة على حركة القوى الشعبية ، وليس على الانقلابات العسكرية ، فلقد ولّى زمان كان فيه جمال عبدالناصر ضمانة لتحول الانقلاب إلى ثورة .

سؤال :

هل من الصحيح مقولة « ان الثورة لو بقيت في إطارها الاقليمي أي داخل مصر دون أن تفتح المعارك مع أعداء الأمة العربية ، في كل مكان ، لاستطاعت تطوير مصر بشكل أفضل ؟

جواب :

أنه سؤال افتراضي .. رغم ذلك أن الثورة الناصرية هي ثورة قومية أساساً أي أن أحد أبعادها الأساسية التي تكلمت عنها سابقاً هو البعد القومي وبالتالي لم يكن وارداً على الاطلاق أن تكون إقليمية

وأن تتقوقع على نفسها وتتكفىء داخل مصر ، وهذا الافتراض ليس أكثر من دعاية مضادة ، مصدرها القوى المعادية في الداخل والخارج لأن هذه القوى تعلم تماما أن مصر لا حياة لها ولا قوة ولا عزّة ولا كرامة بغير أمتها العربية ، وأن أمتها العربية لا حياة لها ولا قوّة ولا عزّة ولا كرامة بغير مصر الثورة .

إنها حقيقة لا يؤكدها الواقع المعاصر فحسب بل ويؤكدها أيضاً التاريخ .. في عهد إبراهيم باشا كانت مصر قوية ، لذلك جمعت كل الناطقين بالضاد مما أثار القوى الاستعمارية التي تحالفت رغم كل تناقضاتها ضد ابراهيم باشا ، ولقد سئل ابراهيم باشا : إلى أين أنت ذاهب وقد وصلت إلى جبال طوروس ؟ فقال : إلى حيث ينتهي وجود الناس المتكلمين بالعربية .. وكان ذلك تعبيراً عن وعي إبراهيم باشا لتلك الحقيقة .

كذلك عندما تحرك صلاح الدين بجيشه من مصر ضدّ الصليبيين ، وانتصر في حطين ، وعندما تحرك قطز بالشعب المصري وانتصر بعين جالوت عندما فعل ذلك كان من أجل العرب ومن أجل الحضارة العربية الاسلامية حتى من الناحية النظرية ، فلو اعتمدنا أي نظرية من النظريات القومية لوجدنا مصر جزءاً من الأمة العربية ، لا يمكن فصله عنها لا لغة ولا ثقافة ولا تاريخاً ولا مصلحة ولا مصيراً ، وحتى من الناحية العرقية ، رغم أننا لا نعتبر الأصل العرقي عاملاً أساسياً من العوامل المكوّنة للأمم ، وحتى من هذه الناحية فإن المؤلفات الصحيحة والأبحاث التاريخية ، ومنها مثلاً كتاب جمال حمدان حول شخصية مصر ، كلها تقول بأن الجزيرة العربية هي منبع الجماعات البشرية التي شكلت فيما بعد الأمة العربية .

وتقول بأنه قبل حوالي ٣٠ ألف سنة عندما حلّ عصر الجفاف بعد عصر المطر هاجرت مجموعات كبيرة من الجزيرة العربية قاصدة المناطق الخصبة الأخرى بكل الاتجاهات ، ولنلاحظ أن كلمة « الشام » مصدرها كلمة الشمال ، وهي تعبر عن المنطقة التي تقع شمال الجزيرة العربية : شمال ـ شمّال ـ شمام ـ شام وكذلك الأمر بالنسبة لليمن التي أتت من اليمين ومع الزمن تحرّفت وأصبحت يمن . وهكذا فقد انتقل الناس إلى الشمال فأطلقوا على الأرض الجديدة وانتقلوا إلى اليمين فأسموها اليمن ، وانتقلوا شرقاً وغرباً فجاءت تسمية العراق ومصر بأرض السواد ، وليس غريباً أن مصر اسمها أرض كيم أي الأرض السوداء ، لأنه لم يكن ممكناً العيش في مصر آنذاك ، لأن مصادر المياه كانت فقط من السماء ، أي المطر .

الدين والاشتراكية :

سؤال :

ما هي العلاقة بين الدين والاشتراكية .. وما هي الشبهات التي يمكن أن تختلط في ذهن الانسان العربي فيما يتعلق بهذه القضية ؟

جواب :

ثمة شبهات ثلاثة أو تناقضات ظاهرية ثلاثة ، تعتري ذهن الانسان العربي المؤمن ، والأكثرية الساحقة من المواطنين العرب مؤمنين ، فتختلط عليه الأمور خاصة وأن من له مصلحة في تشويه

صورة الاشتراكية أمام المؤمنين ، فيعكّر المياه ليصطاد فيها . ويتساءل الكثيرون بصدق وبإخلاص عن ماهيّة العلاقة بين الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وبين الاعتقاد بأن الاشتراكية هي الحل الحقيقي لكل مشكلات التخلف والظلم الاجتماعي التي تسود الوطن العربي .

الشبهة الأولى : تنتج عن أن الدين فلسفة شمولية كاملة مصدرها السماء وأن الاشتراكية طرحت على الناس في العصر الحديث كفلسفة شاملة أيضاً مصدرها البشر وبالتالي لابد من حصول التناقض بين الفلسفتين .

الشبهة الثانية : جاءت من أن الدين يقوم على الغيب والايمان بالغيبيات بينما الاشتراكية تستند على العلم وعلى شواهد التجربة ونتائج الاختبار وبالتالي يأتي التناقض من عدم اتفاق الفلسفتين نتيجة اختلاف أسسهما .

الشبهة الثالثة : نتجت عن أن الأديان فسرّت في زمان معين ، ولا يزال هذا التفسير قائماً مستمراً فيتم إعتباره قيداً يعرقل الطموح والتطور والتقدم .. وبكلمة أخرى ان تفسيرات الدين تعتبر محافظة تقيّد الانسان وتعرقل حركته بينما الاشتراكية حركة طامحة للتغيير والتطوير والتقدم وبالطبع اذا كان الدين يفسر على انه تجميد لحركة الانسان بينما الاشتراكي حركة تدفعه إلى الأمام فبين المحافظة والتغيير لابد من حصول التناقض . هذه الشبهات الثلاث سنتناولها واحدة واحدة بمنتهى الأمانة ومنتهى الموضوعية أو على الأقل هذا ما سأحاول الالتزام به إلى أكبر قدر ممكن .

أولاً : إن الدين فلسفة شاملة كاملة تهتم بالانسان ، علاقة الانسان بالانسان ، علاقته بالله ، بالأشياء ، بالحياة .. وتهتم بالانسان من قبل ان يولد وبعد أن يولد وبعد أن يموت .

والاشتراكية طرحت أيضاً على أنها فلسفة شاملة كاملة ... فأين وجه الخطأ ؟ ان الدين في حقيقته الأساسية ، وبخاصة الدين الاسلامي ، لم يتعرض لكل مجالات الحياة بكل تفاصيلها تماماً بل قدم لنا التصور الفلسفي لما قبل الحياة ولما يجب أن تكون عليه الحياة ولما بعد الحياة ، أي أنه حدد لنا حدوداً أساسية ، مبادىء عامة يجب أن تستند حياتنا إليها ولا تخرج عنها وبالتالي فانه لم يقدم لنا تصوراً تفصيلياً ، دقيقة بدقيقة ، لهذه الحياة والا لكان صادر عقولنا وتركنا بدونها كالكائنات الأخرى .

والاسلام أهم ما يميزه هو احترامه العظيم للعقل الانساني بل أن فلاسفتنا واسلافنا الصحالين قالوا بأنه لو خيّر الانسان بين العقل والنقل ينبغي عليه أن يختار عقله ، لأن العقل هو في طريق الوصول إلى الدين والى الايمان ومن هنا فان الشريعة الاسلامية تعتبر ان المجنون ليس له دين .

والعقل ليس قطعة فنية أو جوهرة للزينة وانما هو آلة ضخمة معقدة في غاية الدقة والتنظيم ، ارادنا الله أن نستخدمها في كل لحظة وفي كل مكان ، فاذا جاء الدين ليصادر عمله ووظيفته فانه يناقض ارادة الله وبالتالي لا يمكن إعتباره ديناً . ان الذي يميز الانسان عن الحيوان وعن الكائنات الأخرى هو العقل مستخدماً وليس مغيباً أو مخمّراً ومن هنا جاء تحريم الخمرة لأنها تغيّب العقل رغم فوائدها الكثيرة . ولأن الله لا يريد لعبده ، ولأن الاسلام لا يريد لمؤمنيه أن تغيب عقولهم لحظة واحدة فانه حرم كل شيء من شأنه أن يؤدي إلى فقدان هذه الميزة .

من هنا فانه يدفعنا ويحرضنا دائماً لكي نعمل ونشغّل عقولنا ، ذلك ما يمكن استنباطه من سور وآيات كتاب الله : لعلهم يعقلون .. لعلهم يتذكرون .. لعلهم يتدبرون .. وانظروا ما في السموات والأرض .. يا أولي الألباب .. الخ . ليس هناك سورة واحدة تغيب عنها الدعوة لتشغيل العقل والفكر

ردّ الأعداء . فقام النبي وحمل معوله وبدأ فعلا بالحفر وشارك الناس جميعاً . بعد انتهاء المعركة بالنصر لمس الجميع أهمية اقتراح سلمان فتنازع المهاجرون والأنصار حول انتماء سلمان فقال المهاجرون « سلمان منا » وقال الأنصار « بل سلمان أصلاً منا » فتدخل الرسول حاسماً الأمر بأن سلمان من أهل البيت ... احدى أهم العبَر في هذه الحادثة هي أنها تشير إلى تقدير العلم والتفكّر والتدبر .. نلاحظ هنا انه لا الوحي نزل ليقول للرسول ولا القرآن أمر بحفر الخندق بل ترك الرسول والمؤمنون معه أن يواجهوا المشكلة ، مشكلة الضعف أزاء القوة والقلة أزاء الكثرة والفقر أزاء الغنى ، وبعد التفكّر وأعمال العقل أتت فكرة سلمان بحفر الخندق حلاً للمشكلة .

ولنفترض جدلاً أن القرآن أو الوحي آنذاك أمر بحفر الخندق ، لتحوّل الأمر إلى نصّ ملزم يجب التقيد به .. فنأتي بعد ألف سنة لنقول يجب حفر خندق في مواجهة البندقية أو المدفع وهذا ما يتنافى مع حكمة الله وسنته . من ناحية أخرى ، الإشتراكية لا تقوم فقط على العلم ولا على الماديات لأن لها جانباً روحياً وأخلاقياً يتجسد بالقيم الاشتراكية التي تتغلغل في عقول وضمير الانسان لتدفعه إلى تقديم كل ما يستطيع والتضحية بكل ما يملك بل بأعز ما يملك في سبيل المجتمع .

ثالثاً : القضية الثالثة التي تثير الشبهة ، ان الأديان تم تفسيرها في بعض الأحيان بشكل يجعلها ضد التقدم وضد التطور ، وسبب ذلك يعود إلى التفسيرات التي قدمها بعض المسيحيين تبريراً لموقف الكنيسة (في أوروبا) المعارض بإستمرار للعلم والتقدم .

والكنيسة حيثما فعلت ذلك ، كانت تدافع ليس عن الدين ولا عن المتدينين وإنما عن مصالحها وعن سلطتها في المجتمع . وبالتالي كان من الطبيعي أن يحصل الصدام بين المؤيدين للعلم والساعين للتقدم وبين رجال الكنيسة الذين استخدموا الدين ليتهمّوا العلماء بالكفر والهرطقة ومن هنا كانت بداية الدعوات لفصل الدين عن الدولة .

هذا الواقع لم نسلم نحن منه ولم يسلم منه المتدينون المسلمون نتيجة سقوطنا في دائرة تأثير الحضارة الغربية بعد أفول حضارتنا فتم إيقاف الاجتهاد وخرجت الأحاديث الكثيرة التي تحرّض ضد العلم والابداع والتقدم .. مثل « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » .

اضافة للتأثير الغربي كانت هناك ضرورة لهذا الموقف ناتجة عن حرص المتسلطين على استمرار تسلطهم واستغلالهم للناس ، فكان ذلك سبباً أساسياً في الجمود الحضاري الذي ما زلنا نعاني منه . وهذا مما يتناقض مع روح وجوهر الدين لذا لابد من التفريق بين حقيقة الدين وحقيقة ما يفعله المتدينون فالاسلام شيء والمسلمون شيء آخر .. والكنيسة شيء والمسيحيون شيء آخر .

والاسلام بالذات ليس ديناً محافظاً أو جامداً ولا يمنع بل يحرّض الانسان على الحركة ، حتى أن التعريف الفلسفي الاسلامي للانسان ، أنه خليّة حيّة نفعية تقدمية تؤدي خيراً لها ولمجتمعها وللبشرية كلها .. انها خلية تغييرية غير ساكنة لأن الفرق في الدين الاسلامي بين الحياة والموت هو الفرق بين السكون والحركة .

وما يؤكد كون الاسلام دين تقدم وتطور هو اننا حين فهمنا جوهره وقررنا العمل على أساسه صنعنا حضارة عظيمة ولم يمنعنا تديننا آنذاك من تحقيق قفزة حضارية هائلة وضعتنا في مقدمة الشعوب تطوراً وتقدماً . وبالتالي لا يمكن اتهام الاسلام بالمحافظة والجمود لأنه لم يقف عقبة أمام طموحات الانسان بل يجدر بنا ، اذا كان لابد من الاتهام ، ان نتهم المسلمين الذين حرّفوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم .

وهكذا عندما نفهم حقائق الأمور ولا نقزّمها أو نضخّمها أو نصطنع صوراً لها تتنافى مع جوهرها ، عندما نفعل ذلك نحل المشكلة وبالتالي لا يعد ثمة مجال للحرج بين أن يكون الانسان مؤمناً بدينه وملتزماً بالاشتراكية .

ولايضاح الأمر بشكل أفضل نتناول أبرز أسس الاشتراكية ناصرياً ونناقش كل منها على حدة لنرى رأي الدين فيها . فالاشتراكية ناصرياً تعني سيطرة الشعب على وسائل الانتاج الرئيسة في المجتمع وان العمل هو المصدر الأساسي والوحيد للرزق وللاحترام في المجتمع وان التخطيط المركزي هو ضرورة لتحقيق العدل والتقدم وان المصلحة العامة تتقدم على المصلحة الفردية .

أولاً : هل ينفي الدين أو يعارض ان تكون مصادر ووسائل الانتاج الرئيسة مملوكة للجماهير أو للشعب ؟ اذا نفى الدين ذلك وقال لا ، نقول نعم وليس لنا إلا أن نقول اننا على خطأ .

لكن الدين لا يكتفي بذلك بل يصل إلى درجة أن الملكية الخاصة في العقارات لا يعترف بها على أساس ان (الأرض خلقها للأنام) وان (انفقوا مما رزقكم الله) وان الأرض لمن يزرعها حتى اذا كنت مالكاً لألف فدان وتركتها بغير زراعة ثلاثة أزمنة وجاء من يزرعها فهي له ، بل ان الايجار في الاسلام لا يصح أبداً في العلاقة بين وسيلة الانتاج وبين العامل بحيث ان وسيلة الانتاج ليس لها دخل وإنما الدخل كله للعمل وعليه فان ما يأخذه صاحب رأس المال هو مقابل المضاربة لأن رأس المال معرّض للهلاك وبالتالي لا يأخذه مقابل قعوده لأنه عندئذ يعتبر فائدة والفائدة محرمة .

فالاسلام ضد الاستغلال لأنه لا يريد لأحد أن يستغل جهد الآخر ويبقى هو بدون عمل يأكل ويصرف من فائض ماله بشكل يضر نفسه ويضر مجتمعه .

والملكية في الاسلام هي وظيفة إجتماعية أساساً فاذا رأى المجتمع أن من مصلحته أن تكون وسائل الانتاج الرئيسة مملوكة للناس ملكية عامة فذلك مباح في الدين بل ان الدين يحرض على ذلك .

والرسول يقول بأن الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار .. والنار هي الطاقة والطاقة هي الصناعة ، أما الماء والكلأ فيعنيان الزراعة .

أما « الحمى » أي الأرض التي تقتطع من ملكية المسلمين لكي تكون مشاعاً لهم كلهم فهي مسلمة دينية وليس هناك أي خلاف حولها وحول ان وسيلتها التأميم .

فالدين يأمر (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) اذن يقول خذّ بلهجة الأمر وليس تلقى او انتظر ليعطوك كهبة أو عطية تمنى بها النفس . ويقول أيضاً (يسألونك ماذا ينفقون قل العفّ ومرّ بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .. العف أي ما لا يزيد عن حاجة الانسان .. وأعرض عن الجاهلين الذين لا يقبلون أن تأخذ من الناس ما يزيد عن حاجتهم لكي تعود به إلى مجموعهم . ويتأكد ذلك في الحديث القائل (من كان لديه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ..) والفضل اي ما زاد عن الحاجة الضرورية للاستهلاك ليوم أو لثلاثة أيام أو لحول حسب مختلف التفسيرات لكلمة فضل .

ومن هنا نفهم خطأ إيثار النفس واكتناز الأموال طبقاً لقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة فبشّرهم بعذاب أليم) .. ولنلاحظ هنا ان كلمة بشرهم أتت بشكل يناقض معناها العادي لتعبّر عن منتهى السخرية من الذين يكنزون الأموال .

يجدر بالذكر هنا ان الحديث الشريف يقول (من كان لديه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان لديه فضل ماء فليعد به على من لا ماء له ، ومن كان لديه فضل مأوى فليعد به على من

لا مأوى له ، ومن كان لديه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ...) وظل الرسول يعدد حتى ظنّ الصحابة انهم لا يملكون شيء .

يذكره أيضاً أن قبيلة الأشاعرة كان أفرادها في مواجهة أية محنة يجمعوا كل ما يمتلكون ويضعوه في مكان واحد ثم يقتسموه بالتساوي لذلك كان يقول الرسول بأنه من الأشاعرة والأشاعرة منه .

والعِبرة في ذلك انه في مواجهة أي محنة يتعين على من لديه فضل في أي شيء أن يقتسمه مع من ليس لديه وذلك كواجب إلزامي وليس كمنّة أو كصدقة .

والاشتراكية كنظام إجتماعي اقتصادي يتصدى لتنظيم طاقات وإمكانيات المجتمع ككل بما يحقق حلّ مشكلاته ويخدم مصلحة الناس فيه ويؤمّن لهم عيشاً كريماً دون تمييز ، بذلك يمكن النظر إليها كأسلوب معاصر يستلهم الحديث الشريف في سعيه لمواجهة المحنة التي يواجهها الانسان .

ولو افترضنا جدلاً اننا لسنا في محنة وان العيش الرغيد هو السائد في المجتمع ، كما أحسسنا بوجود ضرورة ايجاد نظام يعمل على تحقيق رفاهية الناس . لكننا في الواقع نعاني من محنة شديدة الوطأة ، شاملة لكل مجالات الحياة فالكثير الكثير منا يعيش دون حد الكفاف لا يجد المأوى ولا العيش الكريم أو بكلمة أخرى لا يجد أي شيء يؤكد قول الله عزل وجل (ولقد كرمنا بني آدم) .. وأين هو التكريم لابن آدن وهو جائع ، حافي القدمين ، لا مأوى له ولا لباس يستر به عورته ؟ من أجل تأمين ذلك ومن أجل ازالة استغلال وإذلال الانسان لأخيه الانسان ، جاءت الاشتراكية . فالله لم يخلقنا ليقدّر لنا الجوع والعري والتشرد دون مأوى وإنما الانسان هو الذي فعل ذلك ، من هنا لابد من مواجهته والصدام معه إذا اقتضى الأمر لاحقاق كلمة الله بأن يكون الانسان مكرماً .

ثانياً : والقاعدة الثانية من قواعد الاشتراكية ، ناصرياً - أي ان العمل هو المصدر الأساسي والوحيد للرزق وللاحترام في المجتمع - ترتبط بشكل لا ينفصل مع القاعدة الأولى أي ملكية المجتمع لوسائل الانتاج .

لأنه اذا لم تكن ملكية وسائل الانتاج بيد المجتمع فلا يمكن أن يكون العمل هو مصدر الرزق والمعيار الوحيد لتقييم الناس وعندئذ يحتل المال مكان العمل كقيمة وتصبح قيمة الانسان مستندة إلى مدى ما يملك من مال أو أرض أو غير ذلك وبالتالي فمن لا ملكية له لا إحترام له ولا تقدير .

وفي الاسلام يبرز العمل كقيمة جوهرية بحيث انه لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من التطرق اليه مرتبطاً بشكل وثيق بالايمان (ليس للانسان الا ما سعى ... الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... وقلّ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ...)

والنظام الأعظم في الدنيا هو الذي يقترب ، أكثر من غيره من النظم ، من العدل الالهي في الآخرة حيث يحاسب كل انسان على عمله فقط وليس على ميراثه أو لونه أو جماله أو نسبه ولا على ما يملكه .. ومن هنا يجب أن نحاسب الانسان في الدنيا بشكل يقترب إلى أكبر قدر ممكن من العدل الالهي .

اذكر هنا حديثاً شريفاً يبهرني كلما اقرأه يقول (لو قامت القيامة على أحدكم وفي يده غرسة فليغرسها فان له في ذلك أجراً) .. هنا نلمس أهمية العمل كقيمة اساسية بفقدانها يفقد الانسان وجوده واحترامه وإنسانيته وهذا ما نتعلمه من حديث عمر بن الخطاب أيضاً حيث يسأل عن رجل ، ماذا يفعل طوال النهار ؟ فيجيبوه بأنه يصلي ويصوم ويقوم الليل ... الخ . فيسأل عمر عن من يقوم بأوده ! أي يعيله فيجيبوه بان أخاً له لا يصلي ولا يقوم بأي شيء من العبادات هو الذي يعيله وهو يحطب من الغابة ،

فيرد عمر بأن أخاه أكثر منه فضلاً وأجراً . والجانب الآخر لأهمية العمل هو المتعلق باتقانه ، اذ في المنظور الاسلامي لا يصح العمل إلا اذا اقترن بالاتقان (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .. أن أطيب الكسب ، كسب الرجل بيده ... اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه .. الخ) كل ذلك يؤكد أن الفهم الناصري للاشتراكية لا يتنافى مع الدين بل ينسجم معه ان لم نقل يستلهمه ويسترشد به .

ثالثاً : القاعدة الثالثة من قواعد النظام الاشتراكي هي التخطيط أو الخطة المركزية الشاملة التي تتولى إعداد برنامج شامل لكافة مجالات المجتمع وأنشطته ينظم هذه الأنشطة بشكل يستند إلى الامكانات والطاقات المتوفرة ويهدف إلى تحقيق الغايات التي حددها المجتمع تحقيقاً لخير وسعادة أبنائه .

البعض يقول « أنتم تقولون وتؤمنون بحرية الانسان فكيف تتبنون فكرة التخطيط » والبعض الآخر يقول بأن التخطيط يتنافى مع التعاليم الدينية !!

أذكر هنا حكاية طريفة وهي ان أحد الصحافيين كتب مرة في جريدة ، كان رئيس تحريرها صلاح سالم ، عن التخطيط يتطرق فيه إلى تقدير عدد السكان .. كم سيكون ؟ وكيف نواجه ذلك ؟.... الخ . وكان أحد رجال الدين يعمل مصححاً للغة العربية فعندما قرأ المقال أخذ يبكي ويقول هذا غير معقول .. ان الصحافي كافر وملحد لأنه يتكلم عن التخطيط وعن عدد الناس .. وهذه مسائل مخصصة للخالق عز وجلّ ولا يصح أن نتدخل فيها .. فقال له صلاح سالم ان الدولة هي التي تتبنى التخطيط وليس الصحافي فقط .. فزاد تأسف مصحّح اللغة وحسرته قائلاً « انا لم أكن أتصور ان الدولة كافرة لهذا الحدّ » !

هذا هو التفكير الذي يسيء إلى الدين ويسيء إلى الاسلام لأنه يدخل في اطار عدم الاحسان وفي التواكل متناسياً ان التواكل يتنافى مع الدين بينما التوكل هو السمة المقبولة إسلامياً .. فالتواكل يعني ترك كل الأمور على الله بينما التوكل يعني أن يفعل الانسان ما يستطيع فعله وبعد ذلك يتوكل على الله .

الحديث الشريف يقول (اعقلها وتوكّل ... اذا عزمت فتوكل على الله ..) اذن يجب ان اعزم أولاً أي اقرر وأحسب وأدبر أموري وبعدها أتوكل على الله .. وهل التخطيط غير هذا ؟

أموال المجتمع لا تكفي اذن لابد من التخطيط لتنظيم الانفاق وزيادة الموارد و ... وهل التخطيط غير أن تحسن في الانفاق ؟

والله عز وجلّ فرض علينا الاحسان في كل شيء .. (ان الله يأمر بالعدل والاحسان ..) والاحسان هنا ليس معناه الصدقة بل يعني أن تحسن كل أمر تفعله . نأخذ مثالاً تبسيطياً : رب عائلة راتبه الشهري مئة جنيه فهل يذهب ويشتري بها ألبسة ويبقى حتى آخر الشهريتضور جوعاً هو وعائلته ؟ أم أنه يبرمج عملية الصرف عبر خطة معينة تتحدد فيها الأولويات ، الأهم قبل المهم والمهم قبل الأقل أهمية .. دفع إيجار البيت ، الأكل ، المواصلات ، المدرسة ... الخ .

ثم من ناحية أخرى لنلاحظ اقتران الاحسان بالعدل (ان الله يأمر بالعدل والاحسان ..) ولا حاجة لي هنا للشرح كثيراً فيما يتعلق بأهمية العدل ، يكفي أن أقول ان العدل هو قاعدة جوهرية في الاسلام الى درجة أن هناك من السلف الصالح من يقول أن دولة ما يمكن أن تقوم على الكفر إنما لا يمكن أن

تقوم على الظلم ، فالفلسفة الاسلامية تقول : إذا كنتم تريدون أن تقيموا دولة فأقيموها أولاً على العدل وبعده على الايمان والعبادات ..

من هنا عندما يقترن الاحسان بالعدل نعرف مدى أهميته ، والاحسان يدخل كما ذكرنا في كل شيء وحتى على الصعيد الفردي حيث أن الانسان ملزم بالاحسان في أكله وملبسه وتعامله مع نفسه ومع الآخرين وعمله الذي يجب أن يتقنه بقدر ما يمكن .

رابعاً : قاعدة أخرى من قواعد الفهم الناصري للاشتراكية تقول بأفضلية المصلحة العامة ، مصلحة المجتمع ، على مصلحة أي فرد فيه وبالتالي فاذا ما تصادمت هذه مع تلك فالأفضلية للأولى وليس للثانية . ولو رجعنا إلى الدين لوجدنا ان خطابه موجه بشكل دائم إلى الانسان ليس كفرد وإنما كجزء من كل أو كخلية من خلايا المجتمع ، ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا يجب على الفرد أن يضحّي بكل ما يملك فداء لمجتمعه ووطنه وأمته ! بل من هنا تأتي ضرورة استشهاد الفرد أي فرد دفاعا عن المجتمع كقيمة عظيمة ليس في الدنيا فحسب بل وفي الآخرة أيضا .. (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل هم أحياء عند ربهم يرزقون .. من مات دون رزقه أو ماله أو عياله فهو شهيد ..) .

وهكذا كما رأيتم ان فهمنا كناصريين للاشتراكية لا يتصادم أبدا مع الدين بل يتفق معه تماما .. كيف لا وكل ما تقدمه الناصرية ينسجم مع جوهر الدين ومع حدوده وخطوطه العامة الثابتة . هنا أود أن أعيد إلى الأذهان ما نقول به قاعدة فقهية مهمة يتفق عليها الجميع على اختلاف اتجاهاتهم واجتهاداتهم وهي أن الأصل في الاسلام هو في الاباحة ، وهذا يعني أن ما هو محرم دينياً مذكور بنصوص واضحة وصريحة وما عدا ذلك فهو مباح . وهذه حكمة من حكم الله ورحمة منه بالبشر . فضلاً عن انه يعني ان التحريم هو حق إلهي لا يصح إدعاءه من أي كان .. حتى ولو كان الرسول .. (يا أيها النبي كيف تحرم ما أحلّ الله لك) .. وبالتالي فان من يحرّم شيئاً لم يحرمه الله يضع نفسه في مقام المشرّع أي في مقام الله سبحانه وتعالى ، وهذا تجاوز خطير لأبسط مبادىء وتعاليم الاسلام .

اذن علينا ألا نصدّق من يعطي لنفسه حق التحريم ، بل علينا أن نتعرف على ما هو محرّم لنعرف الحدود التي لا يمكن تجاوزها وما عدا ذلك فهو متروك لعقل البشر ولتفكيرهم ولتدبيرهم بما يحقق مصلحتهم وسعادتهم ككل .

ومن هنا فاننا نزعم - وزعمنا صحيح - ان الناصرية لم ولا ولن تنتهك المحرمات بصرف النظر عن انها أصابت أو أخطأت في ما اجتهدته وما طبقته . وهكذا فان الالتباس المطروح حول علاقة الدين بالاشتراكية وموقعها منه ليس له أي اساس من الصحة بل انه يشكل دعوة مغرضة يروج لها البعض باسم الدين ، والدين منها بريء ، لأغراض معينة مرتبطة بآفاق يرتبها لنفسه ولمصالحه المشبوهة مما يدفعنا لحث الخطى في مسيرتنا نحو تحقيق طموحات الجماهير العربية في الحرية والاشتراكية والوحدة . والسلام عليكم .

الفهرس

الجلسة الأولى

الأبعاد الحقيقية للناصرية 1
- البعد القومي 2
- البعد الديني 4
- البعد الاجتماعي 6
- البعد التحرري 10
الدعاوي التي تواجهه الناصرية 12
الديمقراطية في عهد عبد الناصر 17

الجلسة الثانية

ردة مايو ونتائجها على الوضع العربي 23
التيارات السياسية في مصر 31
المداخلات والأسئلة 37